مفاهيم إسلامية

(٦)

خطوط عريضة

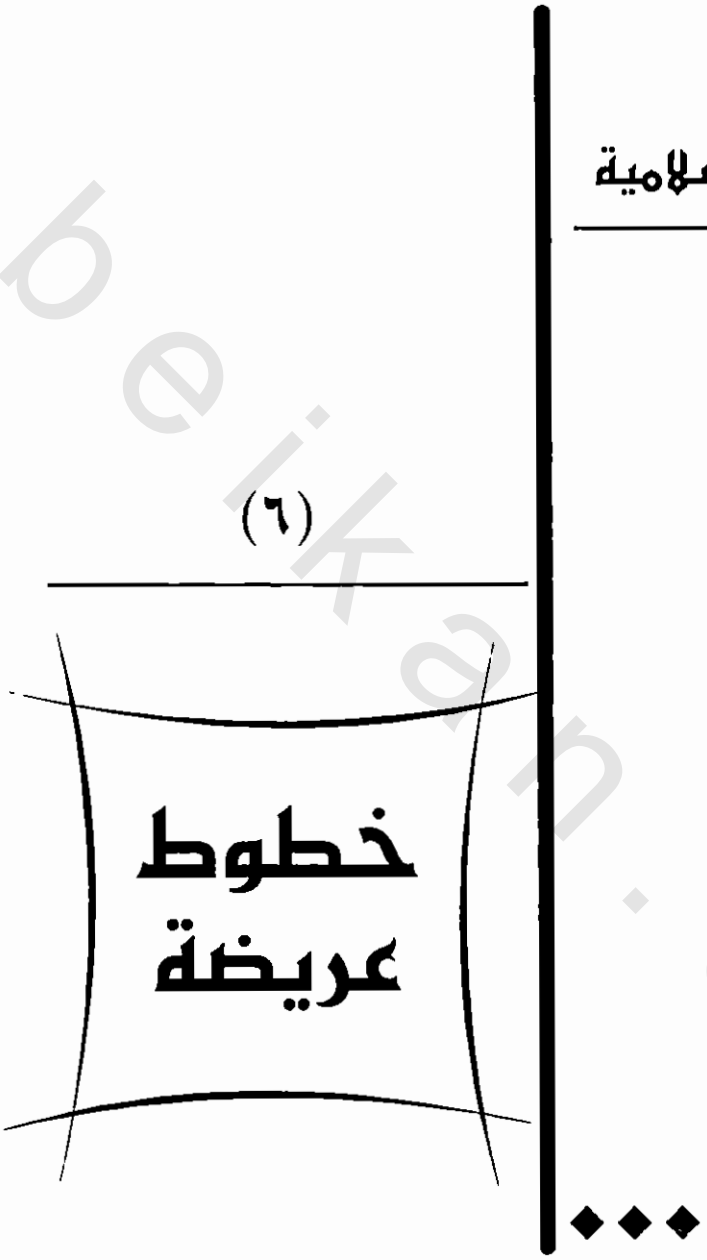

obeikan.com

obeikan.com

مقدمة

الحاجة إلى المشروع الحضاري الإسلامي أصبحت حالة ملحة على الصعيدين العالمي والإسلامي، بل قل : إن مستقبل البشرية عموماً ومستقبل العالم الإسلامي خصوصاً أصبح مرتبطاً بهذا المشروع ارتباطاً شديداً بل حيوياً.

ففي عالم يسوده الظلم والعنصرية والنهب والقهر والعنف والتطهير العرقي، واضطهاد الأقليات، في عالم المنفعة اللاأخلاقية التي أدت إلى إفساد البيئة والحياة فوق بركان نووي وذري، في عالم يموت فيه سنوياً ٥٠ مليوناً بسبب الجوع منهم ١٥ مليون طفل، في عالم يستأثر فيه ٢٠٪ من السكان بخيراته على حساب ٨٠٪ من هؤلاء السكان، في عالم الاغتراب بسبب سيطرة الآلة وحالات الانتحار حتى في البلاد الغنية ذاتها عالم الاكتئاب واللامعقول والإسفاف وقهر الإنسان، في هذا العالم تبدو الحاجة إلى مشروع حضاري يؤكد على قيمة الإنسان، ويتعامل مع الكون والطبيعة من منطلق الصداقة والتناغم والانسجام وليس الصراع والسيطرة والمنفعة اللاأخلاقية، مشروع حضاري يؤكد على المحافظة على البيئة وربط الإنتاج بحاجة الإنسان دون إخلال بالتوازن البيولوجي أو الاجتماعي، مشروع حضاري يؤكد على اللاعنصرية والعدل والحرية والمساواة والمسؤولية الأخلاقية والاجتماعية عن الفقراء والمستضعفين، عالم بلا فقر ولا مجاعة ولا ازدواج معايير، عالم بلا اضطهاد للأقليات، أو ممارسة التطهير العرقي، عالم التعاون بين البشر وليس نهب بعضهم لحساب البعض الآخر، عالم بلا استبداد وبلا قهر وبلا عنف، وهذا كله لا يتوفر إلا في القيم الحضارية الإسلامية التي أثبتت سموها على المستوى النظري والمذهبي، وعلى المستوى التطبيقي، الأمر الذي تفتقده كل المنظومات الحضارية الأخرى،

وخاصة المنظومة الحضارية الغربية التي عانى العالم الكثير بسببها ومازال يعاني، وعلى المستوى الإسلامي فإن الحاجة إلى المشروع الحضاري الإسلامي أكثر حيوية، لأن العالم الإسلامي هو الذي سوف يحمل تلك القيم الحضارية إلى العالم، ولأن العالم الإسلامي في مجمله خاضع للقهر والنهب والاستبداد بسبب الحضارة الغربية، وبالتالي فإن المشروع الحضاري الإسلامي هو وحده الطريق لهذا العالم الإسلامي نحو التحرر والتنمية والانعتاق والنهضة، ولا شك أن فشل مشروعات النهضة التي استندت إلى القيم الغربية في العالم الإسلامي تؤكد بدورها على أن المشروع الحضاري الإسلامي هو وحده القادر على حشد الجماهير وانتزاع طريق السيادة الحضارية والنهضة والتنمية وحل كل المشكلات والتحديات التي يعاني منها أو يواجهها العالم الإسلامي.

وهكذا فإن المشروع الحضاري الإسلامي يأتي كل على مستويين: المستوى العالمي وهو المستوى الذي علينا أن نقدم من خلاله إلى العالم طريقاً جديداً مثيراً للخروج من مأزق العالم المعاصر ومآسيه وظلماته، وهو المستوى الذي يتضمن التأكيد على قيم الحرية، والعدل، واللاعنصرية، وعدم ازدواج المعايير والمحافظة على البيئة والتناغم معها، والمسئولية عن المستقبل ونصرة الفقراء والمستضعفين، وحماية الأقليات ووحدة المصير الإنساني وغيرها من القيم الحضارية الإسلامية.

والمستوى الإسلامي، وهو المستوى المرتبط باستنهاض همم المسلمين نحو التوحيد والوحدة والجهاد وبناء نمط من التنمية مستقل وغير تابع، الأمر الذي يشكل البداية على طريق التحرر من الاستعمار والهيمنة الغربية، وتحقيق النهضة والتقدم والانعتاق ومن ثم يأتي بعد ذلك حمل القيم الحضارية الإسلامية للعالم بأسره.

المشروع الحضاري الإسلامي في مستواه الخاص

التوحيد

التوحيد هو الحقيقة الكبرى في هذا الكون، وهو المقوم الأول للعقيدة الإسلامية، والتوحيد هو الرسالة الجوهرية التي جاء من أجلها جميع الأنبياء من لدن آدم وحتى محمد ﷺ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ .

وقد تعرضت عقيدة التوحيد- في حياة الأمم السابقة من أهل الكتاب- إلى الكثير من التحريف والخلط، إلا أن الله تعالى حفظ للإسلام والمسلمين باعتباره خاتم الأديان، وباعتبار الرسول ﷺ آخر الأنبياء، وباعتبار القرآن الكريم آخر الكتب السماوية، حفظ له القرآن من التحريف، وأصول العقيدة من التشويش ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ .

وهكذا فإن التوحيد هو أهم ما يميز أمة الإسلام عن غيرها من الأمم.

والتوحيد بالطبع شرط لصحة العقيدة والنجاة في الآخرة وهو أيضاً دافع مهم من دوافع الإبداع الحضاري وتحقيق العمران في الأرض، فهو إذن أهم مقومات المشروع الحضاري الإسلامي، وللتوحيد أثار مهمة على الصعيد الحضاري، ذلك أن انفراد الله تعالى بالألوهية والربوبية، وإدراك أن جميع البشر عباد لله يعني بالتالي ضرب مفاهيم الطبقية والعرفية الاقتصادية والسياسية والجنسية واللونية، وليس هناك فرد أو طبقة أو جماعة بشرية أفضل من غيرها أو أحق بالثروة أو السلطة،

والتفاضل لا يكون إلا بالتقوى.

والتوحيد أيضاً يمنع احتكار الدين لطبقة، أو المتاجرة به من قبل رجال الدين المنحرفين، أو ممارسة الاستبداد السياسي أو الاستئثار بالثروة، بدعوى أن هذا أو ذاك هو ظل الله على الأرض، أو المتحدث باسمه أو شعب الله المختار، فالله واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد وجميع الناس عباد لله.

ولقد حرص الإسلام على إدماج التشريع السياسي والاقتصادي والاجتماعي في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، حتى يكون الله وحده مصدر التشريع وبالتالي لا يستغل فرد أو طبقة أو مجموعة سلطتها في سن التشريعات التي تكرس سلطتها السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية ومهمة أمة الإسلام الأولى هي إخراج العباد من عبادة العباد بأي صورة من الصور إلى عبادة الله الواحد القهار.

وللتوحيد أهمية خاصة في المشروع الحضاري الإسلامي ذلك أن العمران البشري، كالعبادة، مرتبط بغاية هي إرضاء الله تعالى، ومرتبط بأسلوب هو الأسلوب الذي وصفه الله تعالى في تشريعه المحكم، وهذا أولاً يحقق أوسع الحريات، وأسلم وسائل العلاقات الإنسانية، بين الإنسان والكائنات والطبيعة في تناغم وتناسق يحفظ للأرض وللكون أمانه في الحاضر والمستقبل، وفضلاً عن هذا فإن مقتضى التوحيد يعني الخضوع لله تعالى في ممارسة العمران البشري كوسائل وغايات، أي الخضوع لشريعة الله في المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والعلاقات الدولية.. إلخ، وهذا بالطبع يحقق أفضل الفرص للإبداع الحضاري وأكثرها أمانا وعدلا وجدوى، ذلك أنه مهما أوتي فرد أو جماعة بشرية من العلم فإنها لا تحيط بأسرار الإنسان والكون وبالتالي لا تستطيع أن تضع التشريعات الصالحة للعلاقات بين البشر أو بين البشر والكون والكائنات فضلاً عن حرص

هذا الفرد أو الجماعة البشرية على تحقيق مصالحها الخاصة دون الباقين، أما الله تعالى إله الناس جميعاً رب الناس جميعاً وخالق كل شيء، العالم بكل شيء فهو وحده القادر على وضع التشريع المناسب لكل البشر والكائنات والكون بدون تحيز وبعلم وشمول وإدراك مطلق.

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ .

وللتوحيد أيضاً أهميته في إطلاق طاقات الإنسان التي أودعها الله فيه، لأن الإنسان الموحد يسير في اتجاه الفطرة، وبالتالي يوفر الوقت والجهد المترتب على الصراع مع الفطرة، والأمر أشبه بسرعة سفينة ذات كفاءة ميكانيكية معينة تسير في اتجاه التيار أو في عكس هذا الاتجاه، وبالطبع فإنها في الحالة الأولى تحقق سرعة أكبر وإنجازاً أكثر.

والإنسان الموحد يؤمن بأن الله هو أقوى الأقوياء، فلا يخاف غيره، وهو الرازق فلا يلتمس الرزق من غيره وهو المعز المذل وبيده مقاليد كل شيء وبالتالي يستطيع أن يواجه أعتى القوى معتمداً على الله تعالى، وهذا يجعل الأمة الموحدة أكثر إنجازاً وأقدر على خوض كل التحديات وبالتالي يكون للتوحيد الأثر الجبار في التقدم الحضاري والعمران البشري، وهكذا فالتوحيد هو العنصر الأهم في المشروع الحضاري الإسلامي، إذ لو قارنا بين جماعة بشرية تدرك أن عملها الحضاري مرتبط بالله في الغايات والوسائل ووجدت أمامها تحدياً أكبر من طاقتها، فإنها لا تفر أمامه بل تأخذ بالأسباب وتشحذ طاقاتها ثم تتقدم معتمدة على مدد الله وبالتالي تستطيع أن تصنع المستحيل، أما الجماعة البشرية التي لا تؤمن بمدد الله، أي تؤمن بالأسباب وحدها فإن الحسابات المادية المجردة قد تجعلها تفر من أمام التحديات التي تراها بالحسابات المادية أكبر من طاقتها المادية.

الوحدة

يمكننا أن نرصد بسهولة ذلك التلازم الحيوي بين كل من الوحدة والجهاد وبين الصعود الحضاري للأمة الإسلامية وبسقوط أو ضياع إحدى هاتين القيمتين، يهبط المنحنى الحضاري للأمة الإسلامية، وتتخلف عن مستوى العمران والأخلاق وتتعرض للتحديات الخارجية والداخلية.

فالوحدة إذن عنصر أساسي من عناصر المشروع الحضاري الإسلامي، وهي أولاً فريضة شرعية، وهي ثانياً ضرورة للصعود الحضاري الإسلامي ولحماية الأمة من أعدائها وضرورة أيضاً لرقي الأخلاق والسلوك لدى أفراد هذه الأمة.

والأمة الإسلامية كلما كانت موحدة، كانت قوية قادرة على تحقيق رسالتها، وقادرة على حماية نفسها من الأعداء وقادرة على تحقيق العمران، وقادرة أيضاً على الرقي الأخلاقي والسلوكي والاجتماعي، وكلما كانت مفككة، كانت ضعيفة، غير قادرة على أداء رسالتها وغير قادرة على حماية نفسها من الأعداء، وغير قادرة على تقديم إنجاز عمراني ذي شأن، ومنحطة أخلاقياً وسلوكياً واجتماعياً.

والنصوص الشرعية التي تؤكد فرضية الوحدة كثيرة ومتنوعة يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون:٥٢].

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران:١٠١].

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٣].

ونلاحظ في الآية الأولى والثانية أن هناك ارتباطاً بين الوحدة والأمة الواحدة، وبين عبادة الله في الأولى وتقواه في الثانية، وفي الآية الثالثة وضع الوحدة والاعتصام كمقابل الكفر، وجعل الوحدة والاعتصام هما الطريق إلى الصراط المستقيم، وتستطيع أن تفسر الصراط المستقيم هنا بأنه طريق النجاة في الآخرة، والعزة والسيادة الحضارية في الدنيا.

وفي الآية الرابعة- نرى أن الله تعالى جعل الوحدة والاعتصام وعدم التفرق نوعاً من النعمة- وهي بلا شك نعمة عظيمة- وجعلها أيضاً طريقاً لتجنب الهلاك في الدنيا والآخرة وهي معلم من معالم الهداية وهي إحدى آيات الله، أي أن الوحدة آية من آيات الله تعالى وهي نعمة وهي طريق لتجنب البوار في الآخرة والدنيا على حد سواء.

ويقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[آل عمران:١٠٥] . أي أن الفرقة طريق إلى العذاب العظيم في الآخرة، والانحطاط الحضاري في الدنيا والسقوط في الذلة والهوان.

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٩] .

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجر:١٠] .

أي : أن الوحدة والأخوة هي إحدى علامات الرحمة لأنها تنجي في الآخرة وتصنع التقدم والعزة والسيادة في الدنيا.

ويقول الرسول ﷺ : «**من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه**» أخرجه أبو داود.

أي أن مجرد الزحزحة عن الوحدة ولو بشبر واحد هو خروج عن ربقة الإسلام وخلع لهذه الربقة من العنق، بما يعطي الانطباع بمدى أهمية وخطورة فريضة الوحدة.

ويقول : «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً**» أخرجه البخاري ومسلم والترمذي.

ويقول : «يد الله مع الجماعة» أخرجه الترمذي.

ولاحظ في هذا الحديث الموجز، أن مدد الله يأتي مع الوحدة أو أن الوحدة شرط لنزول مدد الله تعالى، ومدد الله تعالى هائل، وأمة تستند إلى مدد الله تعالى- وهو أقوى الأقوياء- قادرة على النصر والسيادة والإنجاز الحضاري بصورة ضخمة جداً تتناسب مع المدد الذي يتنزل من الله العزيز القدير الحكيم العليم الذي يملك خزائن كل شيء.

أي أن الوحدة- فريضة شرعية، وطريق إلى النجاة في الآخرة وطريق أيضاً إلى العزة والسيادة والنصر وتحقيق أكبر المنجزات العمرانية في الدنيا.

الوحدة الإسلامية إذن شرط لازم لمواجهة التحديات التي تقابلها أمتنا اليوم، وطريق أكيد إلى العزة ومواجهة الأعداء والنهضة في كل المجالات، والأعداء يعرفون خطورة وأهمية هذه الوحدة، ولذا فإن مؤامراتهم على الوحدة الإسلامية لا تنقطع بل نكاد نجزم أن أي محاولة وحدوية على أساس إسلامي تجعل القوى الاستكبارية تتحرك لضربها سلماً أو حرباً، ومن الأشياء التي يحظرها علينا الأعداء محاولات التوحيد بأي صورة من الصور بين أبناء العالم الإسلامي، ونحن ندعو إلى

الوحدة، ندعو إلى قيام الخلافة الإسلامية باعتبارها فريضة غائبة ونسعى لتحقيق ذلك، وفي نفس الوقت ندعم ونرحب ونؤيد أي محاولات وحدوية بين هذا القطر أو ذاك، بين مصر والسودان مثلاً، أو الوحدة العربية، أو تحقيق نوع من التنسيق في أي مجال من المجالات بين الدول الإسلامية، أو حتى بين الشعوب والمنظمات الشعبية الإسلامية «كاتحاد المنظمات الهندسية في العالم الإسلامي» أو أي شكل من الأشكال الوحدوية بشرط واحد هو أن تكون طريقاً إلى الوحدة الإسلامية وليس بديلاً عنها أو تتعارض معها.

والأعداء سخروا أقلاماً عربية وإسلامية للأسف للشوشرة على فرضية الوحدة، بعدما نجحوا في إسقاط الخلافة الإسلامية (كعلي عبد الرازق مثلاً) وعلينا في مواجهة ذلك أن نؤكد على فرضية الوحدة ونسعى لنشر الفكر الوحدوي والسلوك الوحدوي والممارسات الوحدوية وكشف صلة دعاة الإقليمية بالمشروع الاستعماري وأنهم مجرد أبواق له.

إنه برغم سقوط الخلافة الإسلامية، كأسمى تعبير عن الوحدة الإسلامية، فإن المظاهر الوحدوية في وجدان الشعوب الإسلامية مازالت- والحمد لله- قوية. فنحن جميعاً نؤمن بإله واحد، وكتاب واحد، ورسول واحد، ونتجه جميعاً إلى مكان واحد في الصلاة خمس مرات في اليوم والليلة «هو الكعبة»، ونحن جميعاً نحتفل بعيد الفطر وعيد الأضحى ونحج جميعاً في وقت واحد إلى مكان واحد كل عام مرة ونصوم معاً رمضان من كل عام، والإحساس بمشاكل المسلمين والتفاعل معهم موجود والحمد لله في كل مكان، ولولا الشعور الوحدوي القوي لدى الجماهير لما رأينا هذا التعاطف الشعبي الواسع مع القضية الفلسطينية في كل مكان من العالم الإسلامي من تركيا إلى جنوب إفريقيا ومن طنجة إلى جاكارتا، وكذلك ظهر هذا

الأمر جلياً في دعم الجهاد الأفغاني بالمال والسلاح وكذلك التعاطف مع مسلمي البوسنة والهرسك وغيرها من المظاهر الوحدوية التي تعبر عن وجدان وحدوي قوي لدى الجماهير المسلمة.

والمسلمون في الغربة في أمريكا واستراليا وأوروبا يتصرفون كجالية ذات سمات مشتركة- وتجدهم يتعاطفون مع قضايا العالم الإسلامي ويدافعون عنها ويمارسون شعائر الإسلام معاً لا فرق بين التركي والمغربي والباكستاني والهندي.

وعلينا أن نعمق هذا الشعور الوحدوي بكل وسيلة ممكنة، علينا أن نسعى لتوحيد التقويم على الأساس الهجري مثلاً في كل البلاد الإسلامية، وتوحيد بدء الصوم والأعياد في كل العالم الإسلامي وفي خارج العالم الإسلامي أيضاً، وعلينا الاهتمام بإنشاء مؤسسات إعلامية ذات طابع عالمي إسلامي ونشر تلك المواد الإعلامية التي تؤكد على قيمة الوحدة، وعلينا أن نحقق اتحادات للمنظمات المهنية في العالم الإسلامي، وكذا اتحادات للهيئات الشعبية والنقابات وغيرها، وعلينا أن ندعم أي تنسيق وتعاون في أي مجال بين الشعوب الإسلامية بل والحكومات الإسلامية إن أمكن، ويمكن اتخاذ القضية الفلسطينية مثالاً باعتبارها قضية مركزية للأمة الإسلامية كقاعدة للانطلاق الوحدوي والممارسات الوحدوية الإسلامية ونشر الفكر والسلوك الوحدويين من خلالها. والوسائل كثيرة، والمهم النية والجدية في العمل.

قضية الوحدة الإسلامية لم تعد تحتمل التأجيل، لأننا بالفعل كأمة مهددون في وجودنا، وهناك مؤامرة دولية واسعة تستهدف إلغاء وجودنا من العالم، أو على الأقل إلغاء وجودنا الحضاري والتحول إلى رقيق للقوى الاستكبارية ، والعالم كله يتجه إلى الكيانات الكبيرة، الوحدة الأوروبية، الوحدة الأمريكية، دول النمور

الأسيوية.. إلخ، وفي عصر الكيانات الكبرى لا بديل أمام المسلمين عن الوحدة إن أرادوا الحياة، والعالم الإسلامي يمتلك مقومات اقتصادية واستراتيجية هائلة وبشرية أيضاً، فهناك ١٤٠٠ مليون مسلم، وهناك رقعة جغرافية هائلة تقع في أهم مناطق العالم المتحكمة في أخطر طرق المواصلات والشرايين الاقتصادية الحيوية، وهناك البترول والفوسفات واليورانيوم وغيرها من المعادن التي يكاد العالم الإسلام يمتلك معظمها، وهناك الأقاليم المناخية المختلفة التي تحقق تنوعاً هائلاً في الإنتاج، وهناك الأراضي الخصبة وموارد المياه والطاقة ، وهناك الإنسان المسلم الذي يستطيع بالإيمان أن يكون أفضل النوعيات البشرية على الإطلاق، وبعد هذا فلا حجة لنا إن تقاعسنا عن إرادة الحياة، وإرادة الوحدة.

على خلاف كبير بين علماء الاجتماع في تحديد العناصر التي تشكل أمة من الأمم أو قومية من القوميات، فمنهم من يجعل تلك العناصر اللغة، الثقافة، التاريخ المشترك، التحديات المشتركة، الجغرافيا المشتركة، الجنس الواحد.. إلخ ومنهم من يرفض جعل هذه العوامل أو إحداها شرطاً لازماً لظهور الأمة بدليل أن هناك دولاً تتكلم الإنجليزية دون أن تشكل أمة واحدة والأمر نفسه بالنسبة للعناصر الأخرى.. وهكذا إلا أن هناك عدداً من الملاحظات التي ينبغي أن نسجلها هنا أولها أن هناك خلطاً بين مفهوم القومية بالمعنى الغربي وبين مفهوم الأمة، وجميع مدارس الفكر الاجتماعي تحدثت عن مفهوم القومية ولم تتحدث عن مفهوم الأمة، بسبب بسيط هو أن هذا الفكر نشأ نتيجة ظهور الدول القومية في أوروبا، وأن هؤلاء المفكرين لم يعرفوا معنى الأمة بالمفهوم الحضاري الإسلامي وثانيها أن جميع العناصر التي اعتبرت أساساً في تشكيل قومية ما ليست سوى تاريخ لتكوين هذه الدولة القومية أي أنها مجرد وصف للظاهرة وليست سبباً لها، وهي نتيجة لظهور

الدولة القومية وليست سبباً لها، بمعنى أن اللغة مثلاً والثقافة والتاريخ وغيرها نشأت بعد تكوين الأمة وكنتيجة لها وليس العكس. وثالثها أننا أمة ذات ملامح خاصة جداً- ربانية- وبالتالي فلا يمكن إخضاعنا للمعايير الغربية لاختلاف السياق الحضاري.

وعلى أي حال فإن القرآن الكريم يحدد لنا العناصر الأساسية لأمتنا وأسباب ظهورها ونتائجها فيقول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

أي أن سبب نشأة الأمة، وعناصر تكوين هذه الأمة هو الرسالية، أو المهمة التي تقوم بها هذه الأمة، أو الرسالة الحضارية لتلك المجموعة من البشر هي التي جعلتهم يشكلون أمة.

فالإسلام بداية هو الذي صنع هذه الأمة، وهو الذي أعطاها المنظومة الثقافية الواحدة، ومن خلال مهمتها الموكولة إليها نشأ التاريخ المشترك والمصير المشترك.. وغيرها من العوامل التي تنتج عادة عن تكوين الأمم.

الأمة الإسلامية نشأت من خلال مهمتها ألا وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي الاضطلاع بمسئولية القضاء على الظلم والفساد والطبقية والاستبداد والتعصب وغيرها من أنواع المنكر، وحماية الضعفاء والرحمة بهم ودعوة الناس لكل خير ومعروف، أي الدعوة إلى المعروف ونشره، ومنع المنكر والقضاء عليه سلماً أو حرباً، ومن خلال العمل لتحقيق ذلك نشأت الأمة الإسلامية، وهي أمة منفتحة لا تقوم على جنس أو لون أو قرابة دم أو غيرها بل هي تفتح ذراعيها لكل من يريد الدخول فيها من كل لون وجنس وأرض، والانخراط بالتالي في مهمتها في إزالة المنكر عن الأرض ونشر المعروف في ربوع العالم.

وهكذا نجد أن الأمة الإسلامية ترفض مفهوم العرقية والتفرقة العنصرية على أساس اللون أو الجنس «**كلكم لآدم وآدم من تراب**» ، «**لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى**»- ليس منا من دعا إلى عصبية، ليس منا من قاتل على عصبية، ليس منا من مات على عصبية.

ونجد أن الأسود والأبيض والأصفر والأحمر- الأوروبي والعربي والإفريقي، والتركي والهندي والإيراني، من يتكلم العربية ومن يتكلم غير العربية، كلهم جميعاً شاركوا في تشكيل هذه الأمة من خلال الاضطلاع بمهامها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

◆◆◆

الجهاد

الجهاد ركن ركين في المشروع الحضاري الإسلامي، ذلك أنه فريضة إسلامية. وهو طريق الصعود الحضاري وطريق أيضاً لتحقيق ونشر القيم الإسلامية وإزالة الاستكبار من الأرض، وهو في حالتنا الراهنة أكثر وجوباً حيث أرضنا مغتصبة في فلسطين والعراق وأفغانستان وأذربيجان والبوسنة وغيرها، وعرضنا منتهك في الهند وفلسطين والبوسنة والهرسك وغيرها، وأمتنا برمتها وحضارتها بكاملها مهددة بالضياع، وفي مثل هذه الأحوال يكون الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة.

وفي الحقيقة فإن تتبع مراحل المنحنى الإسلامي في صعوده وهبوطه نجد أن الجهاد شرط للصعود، والقعود مرتبط بالهبوط الحضاري، بل يكاد ينطبق منحنى الجهاد مع المنحنى الحضاري الإسلامي صعوداً وهبوطاً.

الجهاد إذن هو روح الأمة وحضارتها وسر وجودها، والجهاد طريق أصيل نحو الجنة ورضا الله تعالى، والنجاة في الآخرة وطريق واسع أيضاً للعزة والسيادة والنصر في الدنيا وهو وسيلة لترقية الأخلاق وتحقيق النهضة والعمران في الدنيا.

الجهاد جزء لا يتجزأ من التركيبة الوجدانية والنفسية للمسلم وللجماعة المسلمة وللأمة المسلمة، وبدون الجهاد يحدث خلل في تلك التركيبة، ويصبح الفرد والجماعة والأمة في حالة عجز بسبب هذا الخلل عن الأخذ بأسباب العلم والتمسك بالأخلاق والعمل الإيجابي عموماً في الدنيا، أي تصبح الأمة عاجزة عن النهوض الحضاري والعمراني والاجتماعي والاقتصادي والأخلاقي والعلمي.. إلخ، بل

وتصاب عند غياب الجهاد بالكثير من الأمراض التي تصيبها بالشلل أو العجز أو اللامسئولية أو حتى التآمر والصراع مع بعضها البعض والتآكل من الداخل.

يقول الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ أي أن الجهاد ليس فقط طريقاً إلى الاستشهاد أو النصر بل يفتح أمام المجاهد سبل الهداية إلى سبل الله العلمية والأخلاقية والعمرانية وتحقيق النهضة والتقدم في كل مجال، والراسخون في العلم يدركون أنه من أراد ترقية أخلاق المسلمين وتكثيف حسهم الإيماني وزيادة جرعة العبادة لديهم والتمسك بالفرائض والنوافل فعليه أن يدفعهم إلى طريق الجهاد، لأن الجهاد طريق التقوى، ومن أراد للمسلمين أن يحققوا نهضة علمية أو اقتصادية أو عمرانية أو ينزع من بينهم فتيل المشاحنة والصراع والتباغض فعليه أن يدفعهم إلى الجهاد، فالجهاد هو الأسلوب الصحيح للتربية الأخلاقية وهو الأسلوب الصحيح لنهضة الأمة في كل مجال وفي أي مجال.

ولأن الجهاد هو طريق النجاة في الآخرة، وهو طريق النصر والعزة والسيادة في الدنيا، ولأنه طريق إلى التقوى والأخلاق والإيجابية والنهضة العلمية والاقتصادية والحضارية عموماً فإن الله جعل للجهاد أجراً عظيماً.

﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧١] .

ويقول تعالى : ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٩٥]. ويقول الرسول ﷺ، عندما سئل أي الأعمال أفضل؟ قال: «**الإيمان بالله ورسوله**» قيل: ثم ماذا؟ قال: « الجهاد في سبيل الله » قيل: ثم ماذا ؟ قال: « حج مبرور» أخرجه البخاري ومسلم.

ويقول : «مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم نهاره والقائم ليله حتى يرجع» أخرجه أحمد والطبراني والبزار.

و«جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: علمني عملاً يعدل الجهاد؟ قال: «لا أجده هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجداً فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر؟ قال «لا أستطيع ذلك». رواه البخاري ومسلم.

«قيل: يا رسول الله أي الناس أفضل- فقال رسول الله ﷺ عليه وسلم: «مؤمن مجاهد في سبيل الله بنفسه وماله» قالوا: ثم من؟ قال: «مؤمن في شعب من الشعاب يتقي الله ويدع الناس من شره». أخرجه البخاري ومسلم.

ويقول: «جهاد يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه» أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه.

ويقول: «مقام الرجل في الصف في سبيل الله أفضل عند الله من عبادة رجل ستين سنة» أخرجه الحاكم وصححه.

ويقول: «الإسلام ثلاثة أبيات سفلى وعليا وغرفة فأما السفلى فالإسلام دخل فيه عامة المسلمين، فلا يسأل أحد منهم إلا قال أنا مسلم وأما العليا فتفاضل أعمالهم بعض المسلمين أفضل من بعض، وأما الغرفة العليا فالجهاد في سبيل الله لا ينالها إلا أفضلهم» أخرجه الطبراني في المعجم الكبير.

إذن فللجهاد ثواب كبير في الآخرة. وهو أيضاً طريق للعزة والسيادة والتقدم الحضاري والتوازن في الدنيا وبدونه يحدث انحطاط حضاري وأخلاقي وعمراني وفساد كبير يقول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

وهذه الآية الكريمة تقرر أن الجهاد والقتال فريضة، وتقول أيضاً: إن هذا الجهاد خير، والخير هنا ينصرف إلى الفوز في الآخرة وتحقيق العزة والسيادة والعمران والتقدم في الدنيا؛ لأن كلمة الخير تجمع في داخلها جميع المصالح والمنافع والعكس صحيح ألا وهو أن القعود عن الجهاد طريق إلى الضياع والفساد والانحطاط الحضاري لأن كلمة الشر كلمة تجمع كل المفاسد والانحطاطات والمساوئ.

ويختم الله الآية الكريمة بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي أن الله تعالى يعلم ما يصلح الدنيا والآخرة، وبالتالي فرض عليكم القتال لصلاح الدنيا والآخرة.

ويقول تعالى: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:٦] أي أن الجهاد هو لمصلحة الإنسان أساساً وطريق إلى التقوى والعلو والعزة في الدنيا.

ومما يؤكد المعنى السابق قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي أن الجهاد طريق إلى التقوى والأخلاق والعلم والتقدم والعمران وكل السبل التي يهدي الله الإنسان إليها وهي بالطبع سبل لإصلاح الدنيا والجماعة والفرد وتحقيق التقدم والنهضة والعمران والسيادة والصعود الحضاريين.

ويقول تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٤١].

وهذه الآية تؤكد أن الجهاد خير للإنسان وللجماعة وللأمة وللبشرية وهو خير في التقوى والأخلاق والعمران والصعود الحضاري.

وفي الحديث الشريف: «ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب» أخرجه الطبراني في الأوسط.

فالقعود عن الجهاد طريق إلى العذاب في الدنيا والذل والخضوع للأعداء

والانحطاط الحضاري وكل الشرور وعموماً فإن الصعود الحضاري مرتبط بالجهاد والانحطاط الحضاري مرتبط القعود عن الجهاد، وعلى المستوى الجماعي فإن الجهاد شرط للنهضة والقعود سبيل إلى التردي وعلى المستوى الفردي فإن تارك الجهاد على شعبة من النفاق، ففي الحديث الشريف : «**من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق**» أخرجه مسلم.

و«**من لقى الله بغير أثر من جهاد، لقيه وفيه ثلمة**» أخرجه الحاكم.

بل والجهاد أيضاً طريق إلى الصحة النفسية، والقعود عن الجهاد طريق إلى الأمراض النفسية وعدم التوازن والاكتئاب ففي الحديث الشريف : «**جاهدوا في سبيل الله، فإن الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة، فينجي الله به من الهم والغم**».

لأمة الإسلام رسالة كبرى هي تحرير الناس من الظلم الاقتصادي والاستبداد السياسي والدفاع عن الضعفاء ومنع اضطهاد الأقليات بكل أشكالها وإزالة الاستكبار والعنصرية وتحقيق الحرية والعدالة في الأرض، وهذا بالطبع لا يأتي إلا بالجهاد، فالجهاد هو وسيلة الأمة إلى تحقيق رسالتها المنوطة بها.

يقول الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٩٢].

وهذه الآية الكريمة تحدد أهداف الجهاد وهي إزالة الفتنة فتنة الإكراه على الدين، وفتنة الاستبداد السياسي، وفتنة الظلم الاقتصادي، وفتنة اضطهاد الأقليات، وفتنة العنصرية، وفتنة انتهاك حقوق الإنسان في أي مكان فإذا خضع الظالمون وانتهوا عن هذا وغيره من المظالم فلا عدوان إلا على الظالمين.

ونظراً لأن ظروف أمة الإسلام حالياً، لا تسمح لها بأداء هذا الدور- وإن ظل

واجباً عليها- فإن الجهاد ينبغي أن يوجه إلى تحرير ديار المسلمين ، وتحقيق العدالة والحرية في بلاد المسلمين ومواجهة التحديات الضخمة التي نواجهها الآن كأمة، وفي مثل الحالة التي نحن فيها فإن الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة. ويشكل الجهاد من أجل تحرير فلسطين المركز والجوهر في هذا الجهاد باعتبار التحدي الصهيوني أخطر التحديات التي نواجهها ويجب اعتبار القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية إلى أن يتم تحريرها بالكامل بإذن الله تعالى.

◆◆◆

obeikan.com

النقد والنقد الذاتي

النقد والنقد الذاتي أحد مكونات المشروع الحضاري الإسلامي، والنقد والنقد الذاتي يبدأ هنا بالاعتراف بالحالة التي وصلت إليها أمتنا، والبحث عن أسباب هذه الحالة، وطرق التخلص منها وتجاوزها وبناء نهضتنا وسيادتنا الحضارية من جديد.

والاعتراف بها وصلنا إليه يقتضي بالطبع الاعتراف بأننا الآن في حالة هزيمة حضارية، أمام الحضارة الغربية بالتحديد، وأن بلادنا مغتصبة ومخترقة سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وثقافياً، وخاضعة بصورة أو بأخرى للهيمنة الغربية، وأننا وصلنا إلى هذه الحالة من التفكك والانحطاط والخضوع نتيجة عوامل كثيرة ترجع إلى التآمر العالمي على أمة الإسلام وترجع أيضاً إلى تخلينا عن قيم إسلامية كثيرة وضرورية، وإلى سلبيتنا وقصر نظرنا، وترجع إلى الحكام والمحكومين على السواء، وبكلمة أخرى فإن لها أسبابها الخارجية والداخلية معاً، والنقد والنقد الذاتي كفيل بتحديد هذه الأسباب وكفيل أيضاً بوضع الحلول الصحيحة لمواجهة التحديات والسلبيات الخارجية والداخلية على حد سواء.

وللنقد والنقد الذاتي في قيمنا ومبادئنا وتراثنا الحضاري مساحة كبيرة، وأهمية خاصة، وهي من الفرائض الإسلامية والممارسات اليومية على مستوى الفرد المسلم والجماعة المسلمة والأمة المسلمة على حد سواء.

التوبة الفردية التي يمارسها المسلم في كل يوم عشرات المرات هي نوع من النقد الذاتي، والتوبة الجماعية التي يمارسها المسلمون في صلاة الجماعة أو في الحج أو غيرها من المناسك هي أيضاً نوع من النقد الذاتي، والتوبة هنا ليست مجرد توبة عن الخطايا

أو الذنوب الأخلاقية فقط، بل هي أيضاً التوبة من الأخطاء الاجتماعية والسياسية، والآيات القرآنية التي نزلت بعد غزوة أحد مثلاً تؤكد ضرورة التوبة أو النقد، ألم تكن تلك الآيات تنتقد مواقف وسلوك المسلمين. وتحلل أسباب الهزيمة؟ وهي درس لنا لنتعلم النقد وتحليل الأخطاء الجماعية، والمرأة المسلمة التي خطأت عمر بن الخطاب خليفة المسلمين وهو فوق المنبر كانت تمارس النقد، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما استمع إلى هذا النقد واعترف بخطئه جهاراً وعلناً وأمام حشد من المسلمين كان يمارس النقد الذاتي ويقبل النقد في نفس الوقت ويرسي معالم النقد والنقد الذاتي وهو القائل «أصابت امرأة وأخطأ عمر».

والمسلم مرآة أخيه- أليست هذه دعوة من الرسول ﷺ إلى النقد بل إلى وجوب النقد؟ «ورحم الله امرأ أهدى إلى عيوبي» تأتي أيضاً في هذا السياق؟

والآيات القرآنية الداعية إلى التوبة الفردية والجماعية كثيرة جداً، بل إن الله يخص بحبه التوابين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ .

ويقول تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] .

أي أن النقد الذاتي صفة من صفات الأنبياء، والله تعالى يجعل هذه الصفة من الصفات التي يستحق بها العبد أن يمدحه ربه قائلاً : ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

وهكذا فالنقد والنقد الذاتي فريضة وواجب على مستوى الفرد والجماعة والأمة، سراً وعلناً.

◆◆◆

الحركة الإسلامية

أين تقع الحركة الإسلامية في المشروع الحضاري الإسلامي الأمر هنا يتوقف على رؤية الحركة الإسلامية لنفسها ورؤيتها لأهدافها ومهامها ومستوى سلوكها السياسي والاجتماعي وأطروحتها الفكرية.

لو تصورت الحركة الإسلامية نفسها مثلاً شعب الله المختار وأنها هي الطائفة الملتزمة وغيرها العاصي وغير الملتزم أو تصورت نفسها مثلاً المسلمة وغيرها كافراً أو مشكوكاً في إسلامه، لو تصورت نفسها بديلاً عن الأمة، تخوض المعارك والتحديات في غياب الأمة وبدلاً عنها، لو تصورت نفسها شيئاً خارج حركة الأمة عموماً، فإنها بذلك تكون قد أخطأت خطأ فادحاً، بل قل: إنها ستكون أحد أسباب استمرار هزيمة الأمة حضارياً، وستضيف تحدياً ومشكلة جديدة وسلبيات جديدة فوق التحديات والمشاكل والسلبيات التي تعاني منها الأمة، وهي في هذه الحالة تكون مجرد شكل من أشكال أزمة الأمة التي تعانيها حالياً، إفرازاً ناشئاً عن حالة الهزيمة الحضارية أي هي ليست حلاً للأزمة- بل هي نتيجة لتلك الأزمة الحضارية التي تعاني منها أمتنا في تاريخها المعاصر.

ولو تصورت الحركة الإسلامية نفسها، أنها مجرد طليعة للأمة وجزء لا يتجزأ منها، وأنها مجرد خميرة للنهضة وبالتالي فهي شديدة الالتحام بالأمة والجماهير لا تنفصل عنها، وهي دائماً وأبداً تدرك أن من شروط النهضة أن تنهض الأمة كلها وتخوض الأمة كلها معاركها وتتجاوز تحدياتها، وأن هدفها الرئيسي هو حشد كل قطاعات الأمة بكل مستوى فاعلياتها وتقواها في المعركة، وأنها ليست بديلاً عنها،

لو أدركت الحركة الإسلامية أنها ليست منوطة بالفصل في الخلافات أو ترجيح رأي على رأي- فهذا مكانه الجامعات والمعاهد العلمية، بل هي تتبنى إيقاظ الأمة والعمل كخميرة للنهضة وحشد كل الناس في المعركة وإدراك أن المعركة شرسة وتقتضي مشاركة كل الجماهير، وتلفت النظر إلى التحديات الجوهرية للأمة من تحرر من الاستعمار، إلى تنمية مستقلة وغير تابعة، إلى مواجهة التحدي الصهيوني، إلى دفع الجماهير إلى المشاركة والإيجابية، وتأكيد قيم الجهاد والوحدة والحرية، فإنها في هذه الحالة سوف تكون رأس السهم في المشروع الحضاري الإسلامي.

ويجب أن نؤكد هنا أن الفتوى واستنباط الأحكام وقضايا الحلال والحرام هي من اختصاص العلماء المؤهلين المتخصصين، وليست من اختصاص المفكرين الإسلاميين أو الكتاب والصحفيين أو حتى بعض الهواة كما يحدث أحياناً، وقد يؤدي هذا الخلط وعدم التفريق بين العالم و المفكر فضلاً عن دخول الهواة وغير المتخصصين إلى كوارث، لأن العلوم الشرعية- كأية علوم- تحتاج إلى التخصص الدقيق لكي يصبح الإنسان قادراً على الفتوى فيها، وللاجتهاد وإصدار الأحكام الشرعية شروط معروفة لا تتوفر بالطبع إلا في أهل الاختصاص أو قل : إن الشرط الأول فيها أن يكون المتصدي لها من العلماء المتخصصين الحاصلين على إجازات علمية تؤهلهم لذلك، وكذلك فإن الخلافات الفقهية مكانها معاهد العلم المتخصصة وتحسم من خلال العلماء المتخصصين وحدهم.

◆◆◆

القضية الفلسطينية

تحتل القضية الفلسطينية مساحة مهمة في المشروع الحضاري الإسلامي، ويمكننا أن نقول: إن اعتبار القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية أمر يدخل في صميم المشروع الحضاري الإسلامي.

وهذا الأمر يرجع بالطبع إلى أسباب تاريخية ومستقبلية في نفس الوقت، فمسيرة الإسلام الحضارية دخلت في الكثير من التحديات والصراعات ونجحت في عهد الرسول ﷺ وما بعده من الخلفاء الراشدين في حسم الصراع لصالحها ضد الكثير من القوى الاستكبارية، ولم يصمد أمام الزحف الإسلامي إلا الحضارة الغربية، ودخل الإسلام مع تلك الحضارة الغربية صراعاً مريراً بدءاً من عهد الرسول ﷺ وحتى اليوم، واستطاعت أمة الإسلام أن تحقق النصر في الكثير من المواقع والأزمنة على الحضارة الغربية، ولم تكن الحروب الصليبية في المشرق العربي إلا إحدى المحطات في هذا الصراع الغربي استمر في الزمان والمكان وبمساحة واسعة في شمال إفريقيا والمغرب العربي والأندلس وفي الشام وأوروبا ذاتها أيام مجد الخلافة العثمانية وفي البحر المتوسط كراً وفراً، ونحن الآن ومنذ أكثر من قرنين من الزمان تقريباً نتعرض لضغط وهزيمة أمام الحضارة الغربية، والتي استخدمت في نهاية المطاف اليهود كأداة لتحقيق الحلم الأوروبي بالقضاء على الحضارة الإسلامية.

وهكذا فإن إسرائيل تمثل هنا رأس الرمح الغربي ضدنا ويشكل التحالف اليهودي الغربي أحد أهم معطيات التاريخ المعاصر، فالغرب استخدم اليهود ضدنا للتخلص منهم من ناحية، وللكيد لنا من ناحية أخرى واليهود استغلوا الوجدان

الغربي الصليبي والمخططات الغربية المتآمرة ضدنا لتحقيق هدفهم في احتلال فلسطين وإقامة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات فيما بعد.

ومن ناحية أخرى فإن فلسطين أرض مباركة، وبها المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين، وهي في القلب من العالم الإسلامي، والضربة التي تكون في القلب تمس الكيان كله.

ولهذه الأسباب فإن الصراع على أرض فلسطين يمثل المسألة الأهم في مستقبل الحضارة الإسلامية فإما النصر وبداية الصعود الإسلامي الثاني وإما الإبادة والنهاية لحضارتنا لا قدر الله.

وهكذا فإن اعتبار القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للأمة الإسلامية يشكل رقماً مهماً في المشروع الحضاري الإسلامي.

◆◆◆

فقه الإقلاع

يمثل فقه الإقلاع معطى مهماً من معطيات المشروع الحضاري الإسلامي، وهذا المصطلح هنا ليس من قبيل الفذلكة اللفظية، ولا هي محاولة لاستخدام مصطلح جديد أو طريف بل هو يمثل حاجة ضرورية.

ومن الناحية العلمية- وفقاً لأصول الفقه- فإن الاجتهادات الإسلامية تستند أساساً على نصوص القرآن والسنة وهذه النصوص ثابتة، وكذلك تدرس الواقع الموضوعي فتقدم الاجتهاد المكافئ لهذا الواقع الموضوعي المتغير زماناً ومكاناً من خلال التعامل مع النصوص الثابتة، فالفقه لا يعمل في الفراغ.. وتغير الأحكام والاجتهادات بتغير الزمان والمكان حقيقة مقررة في علم أصول الفقه، فالإمام الشافعي مثلاً غير اجتهاداته في مصر عنها في العراق، وابن عمر رضي الله عنه أفتى في عام بغير ما أفتى في العام الذي سبقه في نفس المسألة.

وهكذا فإنه من الناحية العلمية- وفقاً لأصول الفقه- فإن الفتوى تختلف من زمن إلى زمن ومن مكان إلى مكان، ونحن الآن في حالة مختلفة كماً ونوعاً عن سابقاتها، بل لم يسبق لها مثيل، فنحن الآن في حالة هزيمة حضارية، نحن في حالة خضوع واختراق سياسي وثقافي وعسكري واقتصادي أمام الغرب، نحن الآن لسنا في حالة سيادة حضارية أو حتى تعادل حضاري، والفقه الإسلامي المعروف والذي أنتجه اجتهاد العلماء تم كله إما في حالة الصعود الحضاري والسيادة الحضارية لأمتنا أو في حالة التعادل الحضاري والاستقلال الحضاري تجاه الآخرين، وكان هذا الفقه عظيماً ومناسباً ومستجيباً ومدركاً لظروف الاستقلال الحضاري التي ظهر في

إطارها، وهذه الحالة لم تعد موجودة كماً وكيفاً، نحن الآن في حالة هزيمة حضارية، أمام اختراق وهيمنة غربية، وأمام تحديات استعمارية وصهيونية ونعاني من الكثير من الأمراض الاجتماعية وفي حالة تفكك يخالف حالة الوحدة تحت راية الخلافة التي كنا عليها، وعلينا أن نراعي هذا كله في تقديم اجتهاد مكافئ لهذه الظروف وأخذ هذا كله في الاعتبار استجابة لدواعيها ونحن نطلق عليها «فقه الإقلاع».

نحن نريد إيقاف الانحدار في المنحنى الحضاري، ونريد إحداث انقلاب في هذا المنحنى باتجاه الصعود، ومن المعروف علمياً أن الطاقة اللازمة لإحداث انقلاب في أي منحنى أكبر كثيراً جداً من الطاقة اللازمة لرفع هذا المنحنى درجة أو درجات، وعلى ذلك فنحن نحتاج إلى اجتهادات تكافئ كماً ونوعاً هذه الحالة، اجتهادات تحقق الإقلاع الحضاري، فنحن في حالة جد مختلفة- حالة الهزيمة الحضارية- حالة لم تمر علينا من قبل لأنها تختلف عن حالة الصعود أو الثبات أو السيادة أو التعادل الحضاري، نحن في حالة إقلاع جديرة بفقه جديد هو فقه الإقلاع، ذلك الفقه الذي يأخذ في اعتباره هذه الحالة ويعمل على تجاوزها وإحداث انقلاب في المنحنى الحضاري.

◆◆◆

المواجهة الحضارية الشاملة

الإسلام شكل لهذه الأمة حضارة متميزة، ومنظومة ثقافية محددة وشخصية حضارية محددة الملامح، وهي حضارة تقوم على التوحيد والعدل والحرية، وحضارتنا تدعو إلى التعاون والاستفادة من تجارب الآخرين، ولكنها بالطبع ترفض الذوبان والخضوع للمنظومات الحضارية الأخرى، والأمر أشبه بشجرة، إذا قطعتها مثلاً بدعوى تثبيت شجرة أخرى، فهذا ليس تعاوناً، وكذلك إذا طعمتها كما هو معروف في علم النبات، بشجرة أخرى ليست من عائلتها فإنها لا تستجيب ويصبح الأمر كله هراء وليس إلا من قبيل القضاء على شجرتنا الحضارية والصحيح أن نستفيد بتجارب الآخرين في طريق تنمية هذه الشجرة وتغذيتها والحصول على أحسن الثمار عن طريق تحويل هذه التجارب والأسمدة والمخصبات في داخل أنسجة شجرتنا إلى شيء جديد مرتبط بطبيعة وشخصية هذه الشجرة، أي هضمه وتحويله داخل النسيج الحي لشجرتنا الحضارية إلى جزء لا يتجزأ من شجرتنا الحضارية وليس تشويهاً خارجياً لها أو محاولة للصق قيم حضارية خارجية عنها ستلفظها بالطبع أو تسبب لها مشاكل تضعفها أو تؤدي حتى إلى موتها، إذن فنحن دعاة تعاون حضازي بهذا المفهوم، أما المفاهيم الأخرى فهي محاولة لخداعنا وإخضاعنا تحت شعار التعاون الحضاري.

ونحن الآن أمام حضارة غربية لها القوة والسيادة على العالم ولها منجزاتها العلمية والتقنية، ونحن لا نرفض بالطبع أن نستفيد من علومها ومنجزاتها التقنية بشرط أن يدخل ذلك في نسيجنا الحضاري ويتم هضمه وتحويله وفقاً لعملية داخلية بحتة.

ولكن هل تقبل الحضارة الغربية بهذا النمط من التعاون؟ إنها تقوم على القهر والنهب والعنف والعنصرية وحضارتنا تقوم على التوحيد والحرية والعدل واللاعنصرية، ولا يمكن بداهة أن يحدث تلقيح بين شجرتين حضاريتين مختلفتين إلى هذه الدرجة، والحضارة الغربية تريد الهيمنة والقضاء على الحضارة الإسلامية لأسباب كثيرة، فهل نقبل الخضوع لها والاندماج فيها؟! والحضارة الغربية ترفض حتى إعطاء الآخرين وخاصة المسلمين علومها التجريبية ووسائلها التقنية- برغم أن العلم تراث إنساني- والحضارة الغربية نفسها استفادت من علوم وتقنية الحضارة الإسلامية أيام ازدهارها، ولعل محاكمة المهندس المصري عبد القادر حلمي في أمريكا بتهمة سرقة التكنولوجيا الأمريكية خير دليل على ذلك.

إذن ليس هناك من سبيل أمامنا سوى انتزاع العلم انتزاعاً، ليس هناك سبيل للتعاون، بل للمواجهة- ليس رفضاً من ناحيتنا للتعاون- بل لأن الحضارة الغربية لا تقبل بالتعاون الحر، بل تريد الهيمنة علينا وإخضاعنا بل وإبادتنا حضارياً وبشرياً، الموقف الصحيح هو المواجهة، والمواجهة تكون برفض الاندماج في حضارة الغرب- والتأكيد على الذات والهوية الحضارية لأمتنا وحشد الأمة كل الأمة لمناهضة الاستعمار والصهيونية وتحقيق النهضة وانتزاعها انتزاعاً.

والله تعالى قد رسم لنا هذا الطريق في القرآن الكريم يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة:٥١، ٥٢].

هذه الآيات الكريمات تصف أحوالنا مع الغرب واليهود الآن، فالتحالف بين اليهود والنصارى لم يحدث إلا في السنوات الأخيرة، وكان العداء بينهما أمراً ثابتاً بل

وتعرض اليهود للاضطهاد دائماً على يد الغرب وآخرها أفران هتلر، إذن فالآية تصف الأحوال المعاصرة وترسم الطريق الملائم لهذه الأحوال، وهو رفض الاندماج في حضارتهم وعدم موالاتهم، والآيات تتحدث أيضاً عن هؤلاء الذين ينتشرون بيننا الآن ويقولون لنا إنه لا يمكن مواجهة الغرب وإسرائيل لأن هناك عدم تكافؤ كبير جداً في القوة بيننا وبينهم وبالتالي علينا أن نخضع وننـدمج في الحضارة الغربية، ولكن الله تعالى يطمئننا إلى أن الصبر والصمود والمواجهة هم الطريق الصحيح لأن الله تعالى سوف يأتي بالفتح أو بأمر من عنده.

وفي كل الأحوال فإن الخضوع والاندماج يعني بالنسبة لنا الموت الحضاري، والمواجهة قد تعني الموت وقد تعني الكثير من الخسائر وقد تعني النصر أيضاً في النهاية، لأن الخضوع يعني القضاء على البذور الكامنة بالإضافة إلى الساق والفروع، أما الصبر والمواجهة فقد يعني دمار الفروع والسيقان، ولكن تظل البذور كامنة تحت التربة فتعطي مرة أخرى في ظروف أفضل ساقاً جديدة وفروعاً جديدة، وتنمو الشجرة من جديد.

وهكذا فإن المواجهة الحضارية الشاملة هي إحدى سمات المشروع الحضاري الإسلامي.

العلم:

يشكل العلم- بصورته الشاملة- عنصراً هاماً من عناصر المشروع الحضاري الإسلامي، وتأتي العلوم التجريبية والتقنية على رأس أولويات النهضة الإسلامية المرجوة ذلك أن أحد أسباب هزيمتنا وانحطاطنا الحضاري يرجع إلى إهمال الأخذ بأسباب العلم عموماً والعلوم التجريبية خصوصاً، والتفوق الأوروبي الهائل علينا هو في جوهرة تفوق علم وتكنولوجيا، وصحيح أن العلم في المشروع الحضاري

الإسلامي يستخدم لصالح الإنسان ولتحقيق أكبر قدر من السعادة لكل البشر، ولا يكون على حساب البيئة أو الكائنات الأخرى أو موجهاً لتحقيق أكبر قدر من المنفعة اللاأخلاقية على حساب الإنسان، أو لحساب مجموعة من البشر على حساب باقي البشر.

ولا تناقض هناك بين الإسلام والعلم، بل إن الإسلام يحض على العلم، وقد شهدت العلوم جميعاً وخاصة التجريبية منها ازدهاراً واسعاً في ظل الحضارة الإسلامية أيام ازدهارها، وكانت هذه العلوم هي الأساس التي قامت عليه النهضة العلمية في أوروبا.

ولا شك أن نشر العلم والحصول على أحدث الحقائق العلمية والوسائل التقنية واجب شرعي، أياً كان مصدر ومكان هذا العلم «.. **ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة..**» (رواه مسلم)، «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها»، وفي هذا الصدد فإننا ندرك أن الحضارة الأوروبية لن تقدم لنا العلم بسهولة لأنها تريد باستمرار أن نظل متخلفين وخاضعين، علينا أن ننتزع هذه العلوم انتزاعاً، لاحظ أن أمريكا حاكمت المهندس المصري عبد القادر حلمي بتهمة سرقة التقنية الأمريكية!

وعلى كل مسلم أن يفعل ما يستطيع للحصول على العلم، ويعمل على تعليم الآخرين، لأن من يحجب العلم آثم شرعاً وبالتالي فإن التعليم هنا يصبح واجباً شرعياً وغاية لترقية الأمة والإنسانية وليس مجرد الحصول على خبرات علمية تحقق لصاحبها الكسب الشخصي والرقي الفردي أو الحصول على مركز اجتماعي أو مكاسب مادية. وتعليم الآخرين واجب شرعي كذلك، وعلينا أن نستفيد بخبرات العديد من العلماء البارزين في مختلف الأقطار الإسلامية، وكذلك ذلك الجيش

الجرار من العلماء المسلمين المغتربين في أوروبا وأمريكا وغيرهما ووضع خطة طموحة للاستفادة من خبرات هؤلاء العلماء.

ويجب أيضاً أن يكون لمحو الأمية أولوية لدى المسلمين لأنه من العار علينا ونحن أمة «اقرأ» أن يكون بيننا من لا يعرف القراءة والكتابة، ورسولنا الكريم يقول: «**إنما بعثت معلما**».

رسول الإسلام يقرر أن ساعة من دروس العلم خير من سبعين ساعة عبادة، ومداد العلماء يوزن يوم القيامة بدماء الشهداء، أي أن العلم والتعليم هو وحدة الذي يعادل مقام الجهاد والاستشهاد وهو مقام رفيع كما نعرف، ولعلنا نلتفت إلى المعنى المتضمن في كون أول آية نزلت من القرآن الكريم هي «اقرأ» وهي دعوة مباشرة لتقديم العلم والتعليم على ما عداه.

والآيات التي تحض على العلم في القرآن الكريم تزيد على ٧٥٠ آية في حين أن تلك المتعلقة بالفقه حوالي ١٥٠ فقط، وكذلك هناك الآيات التي تحض على السير في الأرض والنظر في علومها المختلفة كالأحياء والجيولوجيا والجغرافيا وغيرها. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت:٢٠].

◆◆◆

التنمية المستقلة

لماذا نطرح التنمية المستقلة كعنصر مهم من عناصر المشروع الحضاري الإسلامي، ومن المفروض أصلاً أن الكون كله لله وبالتالي فإن ثروات هذا الكون تكون لجميع عباد الله وعن طريق التعاون بينهم.

والإسلام أصلاً يحض على التعاون بين البشر لاستثمار الثروات ويجعل حبس وسائل هذا الاستثمار من علوم وتقنية جريمة وإثماً كبيرا، كما يؤكد على حقيقة عدالة التوزيع بمعنى أن تكون هذه الثروات لصالح جميع البشر وليس مجموعة منهم فقط.

والله تعالى وضع في الأرض والكون من الثروات ما يكفي لسد حاجة كل البشر بل وتكفي أضعافهم آلاف المرات بشرط بذل الجهد في الكشف عن الثروات وتوزيعها بعدالة يقول الله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

ظلوم بمعنى: لا يوزع الثروات بعدالة، وكفار بمعنى: لا يبذل الجهد الملائم في الكشف عنها، لأن الكفر لغوياً يعنى الستر وعدم الكشف والجحود.

نحن إذن نطالب ونحرص على التعاون بين البشر في كل مجال والمجالات الاقتصادية خصوصاً، ونريد أيضاً ترقية وتحسين وسائلنا الإنتاجية بأحدث وسائل العلم والتكنولوجيا ولكن هناك ظرفاً عالمياً خاصاً يعيشه العالم الآن يحتم علينا خيار التنمية المستقلة، ذلك أن أوروبا استخدمت تفوقها العلمي والعسكري في قهر العالم أجمع ونهبه وضاعت العلاقات الاقتصادية الدولية بحيث تصب في النهاية

لمصلحتها على حساب الشعوب الفقيرة، وأصبح الحديث عن حرية التجارة حديثاً عن حرية النهب أساساً بل وأصبحت مؤسسات مالية دولية كالبنك الدولي وصندوق النقد الدولي مجرد قفازات لتشويه البيئة الاقتصادية المحلية في الأقطار الضعيفة بحيث يسهل نهبها.

والاستعمار القديم والجديد وفي كل صوره عمل جاهداً بالقهر والعنف أو بالخداع عن طريق الجيوش أو عن طريق اتفاقيات التجارة الدولية والنظام النقدي الدولي، والمؤسسات المالية الدولية على صياغة البيئة الاقتصادية والاجتماعية في الدول الضعيفة بحيث تحقق للدول الاستكبارية أكبر قدر ممكن من النهب[1] وبالطبع فلا سبيل- طالما كان هناك هيمنة ونهب أوروبي واستكباري- إلا اتخاذ طريق التنمية المستقلة، وقطع كل خيوط التبعية بل وكل ما أمكن من العلاقات الاقتصادية مع الدول الاستكبارية، والاعتماد على نمط من التنمية يعتمد على الثروات والخبرات المحلية- مهما كانت مختلفة- إنتاجاً واستهلاكاً.

على سبيل المثال، فإن القوى الاستكبارية تحرص مثلاً على تشويه وتدمير البنية المحلية في قطاع البناء- بمعنى تشجيع ودعم بناء العمارات على النمط الأوروبي، فيتكدس الناس في شوارع ضيقة وعمارات عالية، وهذه تستلزم خامات وخبرات أجنبية في عملية البناء، وتحتاج بعد البناء إلى أجهزة تكييف نستوردها من الغرب، وتحتاج إلى مصاعد نستوردها أيضاً من الغرب، وفي النهاية يحدث تكدس وازدحام في الشوارع فنحتاج إلى بناء كباري علوية نعتمد في بنائها طبعاً على خامات وخبرات أجنبية ثم تحدث مشاكل رفع المياه التي تحتاج إلى ماكينات رفع من الغرب أيضاً،

(١) راجع في هذا الصدد د. محمد مورو- صفحات من كفاح الشعب المسلم في مصر- الزهراء للإعلام العربي.

ومشاكل في الصرف الصحي تهدد صحة أطفالنا.. وهكذا كل شيء يصب في النهاية في جيب الغرب على حساب مواردنا المحلية ولو أننا فهمنا اللعبة، ونفذنا نمطاً من العمارة يراعي الاعتماد على الخامات المحلية والخبرات المحلية ويلائم المناخ ويأخذ مختلف العوامل الاجتماعية والمناخية في اعتباره لكان الأمر مختلفاً- حيث يمكن استخدام خامات من التربة المحلية وهذه لا تحتاج مثل الأسمنت إلى أجهزة تكييف وكذلك في طريق تصميم المباني بحيث تكون ملائمة للتهوية ودرجة الحرارة، ولاحظ أن لدينا صحراوات واسعة فما الداعي إلى العمارات العالية وماكينات رفع المياه والمصاعد والشوارع المزدحمة، ألم يكن من الأفضل الاتساع أفقياً بدلاً من رأسياً؟ لتوفير أجهزة التكييف والماكينات والمصاعد بل وتوفير مصاريف الكباري العلوية.. وغيرها[1] وصناعات ومنتجات البلاستيك مثلاً- التي نهدر فيها الكثير بسبب الاعتماد على الخامات الأجنبية والخبرات الأجنبية التي يمكن الاستغناء عنها بصناعة الفخار المعروفة في الصعيد وهي صناعة قادرة على توفير أفضل أنواع الأواني فضلاً عن تحملها الشديد للحرارة بعكس البلاستيك بحيث يمكن أن تكون كل الأواني وأدوات الطعام من الفخار، وهذا الفخار يعتمد على خامات محلية وخبرات محلية وهو من الناحية الصحية أفضل من البلاستيك الذي له أضرار مؤكدة من الناحية الصحية[2].

وكذلك صناعة الحصير في الريف المصري المعتمدة على نبات ينبت على شواطئ الترع- أي مجاناً- هو نبات «السمار» ويمكن به الاستغناء عن السجاجيد الفخمة

(١) للمهندس حسن فتحي تجربة جديرة بالاهتمام في هذا الصدد وضعها في حيز التنفيذ في عدد من القرى التي صممها وبناها ويمكن مراجعة كتابه في هذا الصدد بعنوان «عمارة الفقراء» كتاب اليوم.

(٢) د. محمد مورو- دفاع عن الاقتصاد الريفي- مجلة العالم اللندنية ١٩٨٥.

والمفروشات البلاستيكية، وكذا صناعة الجريد من النخيل والتي يمكن بها صنع كل أنواع الأثاث المنزلي والمكتبي اعتماداً على خامة محلية وخبرة محلية، وكذلك الصناعات المنزلية المعتمدة على «الغاب» وهو نبات رخيص جداً يزرع على حواف الأراضي والترع والمصارف ويمكن صناعة أواني حفظ الخبز أو تخزين الطعام منه وكل هذه الصناعات خاماتها رخيصة وموجودة وخبراتها أيضاً موجودة، وكانت بالفعل ولفترة قصيرة سابقة منتشرة في الريف- إلا أنها بدأت تنهار بعد دخول صناعات البلاستيك وغيرها[1].

ونظرة واحدة إلى الريف المصري ترينا كيف تم ارتكاب جريمة بشعة، جريمة نهب- تحت شعار التحديث، فالبيت الريفي مثلاً كان يعتمد في بنائه على الطوب اللبن المصنوع من التربة المحلية، والسقف من الجريد والغاب، وفي هذا البيت يوجد فرن لصناعة الطعام ولصناعة منتجات الألبان ويستخدم أيضاً في التدفئة، وهذا الفرن يعتمد في وقوده على روث المواشي وعلى قش الأرز والذرة وحطب القطن، وكلها موجودة بكثرة في البيئة المحلية، وفي البيت الريفي توجد حظيرة للمواشي والطيور، أي هناك اكتفاء ذاتي من اللحوم والبيض ومنتجات الألبان، كما أن هذه المواشي كانت تقوم أيضاً بحمل المنتجات الزراعية من الحقل إلى المنزل وحمل السماد البلدي ولوازم الزراعة من المنزل إلى الحقل مثل الجمال والحمير والبغال، أو تقوم بإدارة ماكينات الري «الساقية والطمبوشة» وكذلك جر المحراث والقصابية وغيرها من آلات الزراعة وكان الفلاح يستفيد بكل هذا في تكامل شديد وبدون اعتماد على خامات أو خبرات من الخارج، أي نمط تنمية مستقل، أما الآن

(١) د. محمد مورو- دفاع عن الاقتصاد الريفي- مجلة العالم اللندنية ١٩٨٥، وكذلك د. محمد مورو- صفحات من كفاح الشعب المسلم في مصر- - الجزء الأول.

فالبيوت أصبحت من الأسمنت والحديد، ولا حظائر للمواشي، أي لا سماد بلدي، ولا لحوم ولا بيض ولا إدارة للآلات الزراعية ولا نقل عن طريق تلك المواشي، ولا فرن محلي، بل الاعتماد على الخبز المصنوع والطعام المصنوع على أفران البوتاجاز أو السولار، أي هناك حاجة مستمرة لعربات نقل، وسماد كميائي، ووقود غازي أو سائل للأفران والمواقد، ولا حظائر للتخلص من الزبالة والمخلفات، التي كانت تتحول إلى سماد بلدي بدلاً من شبكات صرف صحي، أي أن الإنتاج الريفي لم يصبح مستقلاً بل معتمداً على الخارج أي دخل في دائرة النهب العالمي المعروفة.

وفضلاً عن هذا فإن الفلاح المصري مثلاً كان يبدأ يومه عقب صلاة الفجر مباشرة حيث يصطحب المواشي ويذهب إلى الحقل فيعمل في ضوء الشمس طوال النهار، ويعود بعد أذان المغرب، لينام عقب صلاة العشاء، أي أنه كان يستخدم ضوء النهار كله، ولكن الآن تعود على السهر بعد أن اختل نظام الإنتاج، لأن نظام الإنتاج القديم كان يفرض عليه الاستيقاظ مبكراً والنوم مبكراً، أما الآن فيمكنه السهر إلى ساعة متأخرة من الليل بما يترتب عليه من استهلاك للوقود، فضلاً عن تشويه العلاقات الاجتماعية الريفية التقليدية[1].

◆◆◆

(١) د. محمد مورو- دفاع عن الاقتصاد الريفي- العالم اللندنية ١٩٨٥.

تنمية التذوق الجمالي

قد يبدو للوهلة الأولى- أن مسألة تنمية التذوق الجمالي مقحمة على المشروع الحضاري الإسلامي، أو تأتي في مرتبة أقل من أن تدرج على قائمة المشروع الحضاري الإسلامي ولكن الحقيقة أنها بالفعل ذات أهمية وصلة حيوية وثيقة بهذا المشروع.

ذلك أن الفنون الجميلة مثلاً هي في حد ذاتها أرقى تعبير عن حضارة ما، وبعض المفكرين يعتبر أن الحضارة هي الفنون الجملية، وأن ما يميز حضارة على غيرها هي الفنون وأنه لا حضارة بغير فنون.

ومن ناحية أخرى فإن الفنون الجميلة تعكس قيم الحضارة وتؤكدها في نفس الوقت. ومن ناحية ثالثة فإن تنمية التذوق الجمالي يساعد في ترقية وتنمية الإبداع الحضاري كماً ونوعاً. ومن ناحية رابعة فإن الإحساس بالجمال طريق إلى الإيمان بالله تعالى.

وقبل ذلك وبعده فإن التراث الإسلامي حث بأكثر من وسيلة على تنمية التذوق الجمالي. ولا شك أن هناك نقطة في هذا الإطار ينبغي الالتفات إليها، وهي أن الغلو والتشدد والغلظة التي تظهر أحياناً في الواقع الإسلامي ترجع في جزء منها إلى غياب التذوق الجمالي، وبالتالي فإن تنمية التذوق الجمالي طريق إلى الوسطية والاعتدال والاتزان.

وبديهي أن قسوة القلوب التي يندد بها القرآن الكريم ترجع في جزء منها أيضاً إلى غياب التذوق الجمالي ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ .

والدعوة إلى التذوق الجمالي موجودة بكثرة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ [الصافات:٦].

﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ﴾ [فصلت:١٢].

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [الحجر:١٦].

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ [ق:٦].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:٩٩].

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۚ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [الأنعام:٥، ٦].

ويقول الرسول ﷺ: «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**» رواه الترمذي.

ويقول: «**زينوا القرآن بأصواتكم**» رواه البخاري.

ويقول: «**إن الله جميل يحب الجمال**» رواه مسلم.

«وكان الرسول ﷺ يتفاءل ولا يتبطر ويعجبه الاسم الحسن» رواه الإمام أحمد.

وهكذا فإن الإسلام يحرص على الجمال ويدعو إلى التجمل في الصورة وفي المعنى ويدعو إلى التذوق الجمالي في الصورة والمعنى أيضاً وبهذه المناسبة فإن للتذوق الجمالي أثره المهم في المشروع الحضاري الإسلامي.

◆ ◆ ◆

المشروع الحضاري الإسلامي في مستواه العام
«العالمية» التعاون والتعارف بين الأمم

الإسلام دين عالمي، وهو دعوة الهداية والرشاد للناس جميعاً، والحضارة الإسلامية حضارة عالمية، بل هي الحضارة الوحيدة التي ظهرت على وجه الأرض وتحمل قيماً عالمية.

فالحضارة العالمية يجب مثلاً أن توجه دعوتها إلى العالم أجمع وأن تكون قادرة على تلبية حاجات الإنسان مهما كان لونه أو جنسه أو دينه، وأن تكون معاييرها واحدة بالنسبة لكل إنسان على الأرض.

والحضارة الإسلامية مثلاً لا تفرق بين الأسود والأبيض والأحمر والأصفر، ولا تظلم أحداً بل تعدل بين المسلم وغير المسلم ومعاييرها واحدة بالنسبة لهذا أو ذاك بل إن الإبداع الحضاري الإسلامي ساهم فيه بصورة أو بأخرى الأحمر والأصفر والأبيض والأسود، الأوروبي والإفريقي والآسيوي، التركي والعربي والعجمي، المسلم وغير المسلم.

وأي حضارة لا تكون عالمية في معاييرها، ولا تكون قائمة على المساواة بين البشر وغير عنصرية فإنها لا يمكن اعتبارها حضارة عالمية، وبالتالي فإن الحضارة الغربية مثلاً والتي تقوم على سيادة الرجل الأبيض وعلى العنصرية وتقوم على نهب الآخرين وقهرهم لا يمكن أن تكون حضارة عالمية.

والإسلام إذن والحضارة الإسلامية دعوة للناس كافة وطريق للهداية والرشاد والعدل والحرية واللاعنصرية والمساواة والمحافظة على البيئة وتوزيع الثروات بصورة عادلة والدفاع عن المضطهدين عرقياً ودينياً واقتصادياً وسياسياً، والحضارة الإسلامية هي حضارة التعاون والتعارف بين البشر.

الإسلام دعوة للناس كافة

يقول الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧] .

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:١] .

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ:٢٨] .

بل إن الأمر يصل بأن الإسلام يرتب على المسلم وعلى الجماعة المسلمة وعلى الأمة الإسلامية المسئولية عن كل إنسان في الأرض والدفاع عن هذا الإنسان إذا ما اضطهد دينياً أو اقتصادياً أو سياسياً أو عرقياً، بل وجعل الإسلام الرسول ومن بعده من المسلمين مسؤولين عن الدعوة إلى الهداية والرشاد لكل البشر.

◆◆◆

التعاون والتعارف بين البشر

ومن القيم الحضارية للإسلام، وبالتالي من عناصر المشروع الحضاري الإسلامي في مستواه العام، التأكيد على التعاون بين البشر والتعارف بين مختلف الجماعات البشرية، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا﴾[الحجرات:١٣].

ويقول تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨].

والإسلام يجعل ثروات الأرض لكل البشر فلا يستأثر بها جنس أو جماعة دون جنس أو جماعة أخرى، فعلى سبيل المثال، فإن ثروات البحار للناس جميعاً للانتفاع بها دون تمييز يقول تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة:١٦٤]. ويمكن قياس كل الثروات على تلك الآية الكريمة.

والحضارة الإسلامية في أيام ازدهارها كانت شديدة الانفتاح والتعاون مع غيرها والاستفادة المتبادلة ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ بل إن الإسلام يدعو المؤمنين إلى الأخذ بكل العلوم النافعة مهما كان مصدرها «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها» رواه الترمذي.

بل ويدعو المسلمين إلى نشر العلم والتعليم داخل بلادهم بل وخارجها أيضاً، ويجعل حبس العلم عن المسلمين وغير المسلمين جريمة يحاسب الله عليها الذين يحبسونها يوم القيامة ويطوقهم بالنار بسبب ذلك، وقد قدمت حضارة الإسلام طواعية بل كواجب شرعي الكثير من العلوم والمعارف إلى الأمم الأخرى وقد استفادت أوروبا في نهضتها الحديثة من العلوم التي ظهرت واكتشفت في إطار الحضارة الإسلامية.

النظافة- حماية البيئة- المسؤولة عن الضعفاء

والكائنات غير البشرية- المسؤولية عن المستقبل:

يتضمن المشروع الحضاري الإسلامي- الذي ينبغي تقديمه إلى العالم أجمع- أي المشروع الحضاري الإسلامي في مستواه العام عناصر النظافة- حماية البيئة- المسؤولية عن الضعفاء وباقي الكائنات غير البشرية، وكذلك التفكير في المستقبل وعدم تدميره أو الافتئات عليه وأخذه في الاعتبار دائماً، لأن ثروات الأرض وما فيها ملك للأجيال البشرية القادمة أيضاً وليست ملك الأجيال الحاضرة فقط.

◆◆◆

obeikan.com

النظافة والمحافظة على البيئة

النظافة من الإيمان، ويجب أن يكون المسلم نظيفاً في طعامه وشرابه وملبسة وفي حياته كلها، ويجب دعوة الآخرين إلى النظافة، لأن القذارة مثلاً تؤدي إلى انتشار الأوبئة وهذا أمر يضر البشرية كلها والممارسات النظيفة والعادات النظيفة طريق إلى حماية البشر والكائنات من كل خطر وطريق إلى تحسين الصحة العامة، وتجميل الحياة والتمتع بها، انظر مثلاً إلى الممارسات الجنسية غير النظيفة ألم تؤد إلى انتشار الإيدز، وهو وباء يهدد البشرية كلها حالياً؟ وفي الحديث الشريف : «**إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده**» و«**إن الله جميل يحب الجمال**» و«**من سنن الفطرة- قص الشارب وقص الأظافر، وإعفاء اللحية، واستعمال السواك والاستنشاق، ونتف الإبط، وحلق العانة، وعدم الإسراف في الماء**».

وحتى الاهتمام بنظافة الأسنان لم يهمله الإسلام، بل إن الحديث الشريف يقرر «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة».

والمسلم يتوضأ خمس مرات في اليوم والليلة، والوضوء، والطهارة من الجنابة، وسنة الغسل قبل صلاة الجمعة كلها تؤدي إلى النظافة البدنية وتحسين الصحة العامة.

وفي الحديث الشريف ما معناه : «**من اغتسل وتطهر- فأحسن الطهور ولبس أحسن ثيابه، ثم أتى الجمعة، فلم يلغ ولم يفرق بين اثنين غفر الله له ما بين الجمعتين**».

والله تعالى يقول﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ ويقول : ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ

مَسْجِدٍ ﴾ بل إن التعطر من السنة المحمدية المعروفة، والرسول ﷺ وهو النموذج والقدوة- كان شديد النظافة يحب التعطر والتطيب «**حبب إلى من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة**».

ولعل من دلالات الاهتمام غير العادي الذي أولاه الإسلام للنظافة والطهارة أن الأثر الإسلامي يجعل الطهور شطر الإيمان، والله تعالى يقول : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ، وأن باب الطهارة هو الباب الافتتاحي لمعظم كتب الفقه الإسلامي.

◆ ◆ ◆

obeikan.com

المحافظة على البيئة

والمحافظة على البيئة ركن مهم من أركان المشروع الحضاري الإسلامي في مستواه العام، والله تعالى خلق البيئة نظيفة ومتوازنة، ولكن الإنسان الخارج على منهج الله وفطرته وهديه هو الذي يحدث الخلل والتلوث ويفسد هذه البيئة ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر:١٩]. هذا خلق الله الموزون فماذا فعل الإنسان الخارج على هدي الله ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾.

وهذا الفساد ظاهر الآن للعيان، فالحديث عن تلوث البيئة أصبح حديثاً متواتراً، يلوثها بالنفايات والكيماويات والمواد الذرية والنووية، في البر والبحر والجو على حد سواء حتى إن هناك خطراً ماحقاً على الكائنات الحية في البر والبحر والجو، وعلى الأمان الحياتي والبيولوجي، وعلى التوازن المناخي..إلخ، ويجب على البشرية أن تستجيب لمعطيات المشروع الحضاري الإسلامي في مسألة حماية البيئة، فلا يحدث إخلال للتوازن البيئي والبيولوجي، ولا يتم الإنتاج إلا للمصلحة ومراعاة النظافة التامة في هذا الإنتاج، والتعامل مع البيئة كصديق وليس كعدو وعدم استنزافها وإرهاقها وتدمير توازنها وهو الأمر الحادث الآن بسبب سيادة المنفعة اللاأخلاقية في وسائل الإنتاج الأوروبي والأمريكي الحديث وكذلك سيادة مفهوم الصراع مع البيئة وإخضاعها وهو مفهوم مستمد من قيم الحضارة الغربية.

والمشروع الحضاري الإسلامي يدعو البشر جميعاً، للتعاون والانسجام والتناغم مع البيئة والاستمتاع بثرواتها وجمالها واحترام توازنها، ومراعاة أقصى قدر من

نظافتها، وللحضارة الإسلامية في هذا المجال تراث كبير، ففضلاً عن الدعوة إلى النظافة الشخصية للإنسان، فهناك أيضاً دعوة واسعة للمحافظة على نظافة البيئة، فمن مظاهر الإيمان إماطة الأذى عن الطريق وفي الحديث الشريف : «**لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يغتسل منه**» وقال العلماء : والتغوط في الماء كالبول فيه بل أقبح وكذلك إذا بال في إناء ثم صبه في الماء وكذا إذا بال بقرب النهر بحيث يجري إليه البول فكله مذموم قبيح منهي عنه، ويكره البول والتغوط بقرب الماء وإن لم يصل إليه لعموم نهي النبي ﷺ عن البراز في الموارد.

وقياساً على ذلك يمكن النهي عن تصريف المخلفات في البحار أو غيرها بطريقة تضر البيئة، ويمكن النهي عن إقامة صناعات تنتج مخلفات كيميائية غازية أو سائلة، ذرية أو نووية تشكل خطراً على البر أو البحر أو الجو، أو على الإنسان أو الحيوان أو الطير، في الحاضر أو المستقبل.

ومن المثير أن الإسلام نهى أيضاً عن التلوث الضوضائي، وهي مشكلة قفزت إلى السطح حديثاً، بعد أن اكتشف العلماء الآثار السلبية صحياً واجتماعياً المترتبة على الضوضاء، يقول الله تعالى : ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان:١٩].

والمحافظة على البيئة ليس فقط بعدم تلويثها- وإن كان هذا مهماً جداً، بل أيضاً بعدم استنزافها؛ لأن ثروات الأرض ملك للأجيال القادمة أيضاً من البشر وليست ملكاً لهذا الجيل من البشر وحده، فضلاً عن أن استنزاف البيئة عمل بشع في حد ذاته، والموقف الصحيح في المسألة هو الرؤية القرآنية : ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

العناية بالضعيف وبالكائنات غير البشرية

العناية بالضعيف محور مهم من محاور المشروع الإسلامي ولعل الإسلام دون المذاهب والفلسفات الاجتماعية والسياسية جعل للضعفاء حقوقاً نظرية وعملية، وجعل هذه الحقوق واجبة وجزءاً من العقيدة والإيمان[1]، فالعطف على الصغير والكبير والآباء واجب شرعي[2]، ورعاية الأبناء الصغار وتربيتهم وتلبية حاجاتهم البدنية والنفسية وتهذيبهم وتعليمهم واجب شرعي على الآباء فإن غاب الآباء فعلى الأقارب وإلا أثموا ويمكن للتقاضي الشرعي أن يلزمهم بذلك ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٣٣].

﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٦]. وكذلك فللفقراء والمساكين والعاجزين عن العمل حق معلوم لدى الدولة الإسلامية ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ والأيتام كذلك يحرص الإسلام على رعايتهم أيما رعاية ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾، وقال ﷺ: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى».

والضعفاء عموماً من أيتام ومساكين وفقراء وصغار وكبار سن وغرباء ومرضى وعاجزين ومعوقين لهم حقوق- نكرر حقوقاً- معلومة في أبواب الفقه الإسلامي

---

(١) من الناحية النظرية مثلاً فإن الماركسية لا تعترف بتلبية حاجات غير القادرين على العمل «لكل حسب طاقته».

(٢) وكذلك البر بالآباء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ للرحمة بعد الحقوق باب كبير من أبواب الإسلام، والله تعالى وصف نفسه بالرحمة، وجعلها من أفضل الأخلاق والممارسات التي يتقرب بها العبد إلى ربه.

والعناية بالضعفاء يكملها العناية بكل الكائنات غير البشرية والمسلم رحيم بكل مخلوقات الله تعالى «فإذا ذبحنا علينا أن نحسن الذبح» وتعذيب الحيوانات والطيور محرم شرعاً «**وامرأة دخلت النار في قطة حبستها**» والرحمة بالحيوان طريق إلى الجنة «ورجل دخل الجنة في كلب عطشان سقاه» و«**إن في كل كبد رطبة لأجر**» والإنسان مسؤول أمام الله عن إطعام الحيوانات والمواشي التي يستخدمها ويقتنيها، ومسئول أيضاً عن عدم إرهاقها بالعمل- ومسئول حتى عن نظافتها، و«عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخاف أن يحاسبه الله تعالى عن دابة تتعثر في الطريق لأنه لم يسو لها الطريق».

◆◆◆

المسؤولية عن المستقبل

والمسئولية عن المستقبل جزء لا يتجزأ من المشروع الحضاري الإسلامي في مستواه العام، ذلك أن التفكير في الأجيال القادمة أمر حتمي وأخلاقي في نفس الوقت، ويجب أن تكون هذه القيمة منار اهتمام عالمي، لأنها مرتبطة بكل البشر وليست خاصة بجماعة بشرية وحدها، فالمحافظة على البيئة وعلى التوازن البيولوجي والمناخي أمر يمس الحاضر ويمس المستقبل أيضاً، ويهم الجيل الحالي ويهم الأجيال القادمة، والأرض وثرواتها ليست ملك هذا الجيل وحده بل هي ملك البشرية كلها من خلق منها ومن لم يخلق بعد، والتخطيط والاهتمام بالأجيال اللاحقة خلق إسلامي أصيل، فلا ينبغي إهمال مصير الأجيال التالية، ولا ينبغي التفكير بمنطق المنفعة الآنية فقط، وهذا يكون في كل المجالات بدون استثناء ومن أفضل الصدقات في الإسلام الصدقة الجارية وهي الصدقة التي تفيد الأجيال التالية، وكذلك فإنه يموت المرء وينقطع عمله إلا بثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له، وكلها أعمال تنظر إلى المستقبل وليس الحاضر، أي أنها أعمال راعي القائم بها أن تفيد الأجيال التالية سواء في الصدقة الجارية كإنشاء مدرسة أو شق ترعة أو مورد ماء.. إلخ أو اختراع أو علم ينفع الأجيال اللاحقة، أو تربية وتهذيب الأبناء وهم بالطبع جزء من المستقبل، «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» رواه مسلم وأحمد.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور:٢١] . ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ [النساء:٩] .

العدل:

العدل قيمة كبرى من قيم المشروع الحضاري الإسلامي في مستواه العام، أي فيما يخص المسلمين وغير المسلمين، وعلينا أن نبشر بالعدل ونأمر به ونأخذ به أنفسنا ونأخذ به الآخرين ونجاهد من أجل فرض العدل وتحقيقه في كل مكان ونصرة المظلوم أياً كان وفي أي مكان كان.

يجب أن نكون عادلين مع أنفسنا ومع الآخرين، عادلين في كل شيء في الممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية على حد سواء، ويجب توخي العدالة في المنازعات القانونية المحلية والدولية، بين الأفراد وبين الجماعات وبين الأمم على حد سواء، يجب توخي العدالة وذلك بعدم ازدواج المعايير القانونية، فما يطبق على الشريف يطبق على الضعيف وما يطبق على الحاكم يطبق على المحكوم، وما يطبق على الأصدقاء والأحباء يطبق على الأعداء والمكروهين، وما يطبق على الغني يطبق على الفقير.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠].

والله تعالى يتوعد الظالمين ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورة:٤٢] ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨].

وفي الحديث القدسي: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما...**» حديث صحيح.

«**إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة...**» حديث صحيح.

ومن الأقوال المأثورة: «إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة».

«الظلم يجلب النقم ويسلب النعم».

«لا يكون العمران حيث يجور السلطان».

عدم ازدواج المعايير:

من أهم مقومات العدل في الإسلام وجود معايير واحدة تنطبق على الجميع بدون استثناء، على من نحب ومن نكره ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة:٨] .

على الأقربين والأبعدين بل على أنفسنا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ .

على الشريف والضعيف «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف قطعوه، وأيم الله لو أن فاطمة بنتي سرقت لقطعت يدها».

على القوي والضعيف فأبو بكر الصديق رضي الله عنه هو القائل : «القوي منكم ضعيف حتى آخذ الحق منه والضعيف قوي حتى آخذ الحق له».

ويروي التاريخ الإسلامي أن أميراً من أمراء الغساسنة كان يطوف بالبيت في عهد عمر بن الخطاب فوطئ إزاره شاب من قراره فلطمه الغساني لطمة جدعت أنفه، فذهب الشاب إلى الخليفة عمر بن الخطاب وشكا إليه، فقال عمر للغساني : له القصاص أو يعفو عنك، قال : كيف وأنا أمير وهو سوقه؟ فقال عمر : لقد سوى الإسلام بينكما فلا تفاضل إلا بالتقوى ، فأخذ الأمير يسترضي الشاب الأعرابي، فلم يرض إلا أن يلطمه كما لطمه، وعلم الأمير أن الخليفة عمر سيمكن هذا الأعرابي من القصاص لا محالة ففر إلى الروم مرتداً عن الإسلام، فما اهتم عمر

بذلك، فإنه خير للإسلام أن يخرج منه أمير على أن يمارس ازدواج المعايير.

وعندما ضرب ابن حاكم مصر أي ابن «عمرو بن العاص» عندما ضرب القبطي المصري، أمر عمر بن الخطاب خليفة المسلمين عندما وصل إليه الأمر- أن يضرب القبطي المصري ابن حاكم مصر بنفس الطريقة قصاصاً له وقال قولته المشهورة : «اضربه كما ضربك اضرب ابن الأكرمين».

والرسول ﷺ لم يستنكف أن يضع نفسه موضع القصاص وعرض نفسه للناس ليأخذوا حقوقهم منه حيث صعد المنبر قبيل وفاته قائلاً ما معناه : «أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري.. ومن كنت أخذت منه مالاً فهذا.. ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي..»الحديث.

وعمر بن الخطاب يعطي الدرة للرجل ليضربه كما ضربه عندما اكتشف عمر بن الخطاب أنه ضربه بغير حق، ولكن الرجل يمتنع فيقول له : اعف عني فيقول الأعرابي : ولا أعفو حتى أن عمر بات ليلة مغتماً، فلما رآه الأعرابي في اليوم التالي وجد أثر الألم والهم على وجهه، فقال الأعرابي لعمر بن الخطاب : لعل هذا لما كان بالأمس، فقال عمر الخليفة العادل : نعم فقال الأعرابي : الآن عفوت عنك.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمر قضاته بالتسوية بين الخصوم في المجلس والنظر والإشارة والإقبال وقال في كتابه إلى أبي موسى الأشعري «سو بين الخصمين في مجلسك وإشارتك وإقبالك، حتى لا ييأس ضعيف من عدلك، ولا يطمع قوي في ضعفك».

ويروى أن أبا موسى الأشعري ضرب بعض رعيته أسواطاً وعلم ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأرسل عمر إلى أبي موسى الأشعري، يقول له : لقد عزمت عليك إن كنت ضربته في ملأ من الناس فليضربك بينهم، فلما حضر الرجل، وضع

أبو موسى الأشعري نفسه في موضع الاستعداد لتلقي الضرب بالسوط، فعفا الرجل عنه.

ويروى أيضاً أن عمرو بن العاص قال لأحد الرجال : يا منافق وكان ذلك في المسجد، فذهب الرجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال له : «لقد نفقني الأمير- وكان عمرو بن العاص أميراً- وما نافقت منذ أن أسلمت، فأرسل عمر إلى «عمرو» وقال له : إن كنت نفقته في ملأ، فليضربك كذا سوط، فذهب الرجل إلى المسجد وقال من منكم سمع الأمير ينفقني، قالوا : كلنا سمعه، فقرأ عليهم الكتاب فقال بعض المدهنون »أو تضرب الأمير؟! وصاحوا فيه مستنكرين ذلك، فقال الرجل : ليس لأمير المؤمنين هنا طاعة، فقدم عمرو بن العاص نفسه إلى الرجل ليضربه، فقال الرجل : الآن عفوت.

ووصل أمر العدل وعدم ازدواج المعايير : «أن المسلمين كانوا قد دخلوا بلداً يدعي صفد في إقليم سمرقند واشتكى أهل البلد إلى عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين أن القائد الإسلامي قتيبة بن مسلم قد دخل ديارهم من غير أن يتبع معهم سنة الإسلام في تخييرهم بين الإسلام أو العهد والجزية أو الحرب، بل قاتلهم قبل أن يعرض عليهم هذه الخيارات، وحول الخليفة هذه الشكوى إلى القاضي، فدرس القاضي الموضوع وتبين صدق الشكوى، فأمر الجند بالخروج من الديار التي دخلوها، ونفذ الجند الأمر، وتركوا مدينة صفد امتثالاً للعدالة الإسلامية التي لا تعرف ازدواج المعايير.

وهكذا تعكس نصوص الإسلام العدل وعدم ازدواج المعايير كأروع ما يكون، وتعكسها أيضاً ممارسات الإسلام وحضارة الإسلام، ولا شك أن التركيز على هذه القيمة يعطي دفعة قوية للمشروع الحضاري الإسلامي أمام البشر جميعاً وهم الذين

يعانون الآن وقبل الآن من غياب العدل ومن ازدواج المعايير في ظل الحضارة الغربية.

اللاعنصرية :

عانت البشرية طويلاً، ومازالت تعاني حتى هذه اللحظة، من الممارسات العنصرية للحضارة الغربية، ومنذ تفوق الحضارة الغربية وقهرها للعالم وسيطرتها عليه، وهي تمارس أشكالاً متعددة من العنصرية من إبادة أجناس كاملة «الهنود الحمر» والتطهير العرقي للشعوب كالبوسنة والهرسك، أو استرقاق السود وإقامة أنظمة الفصل العنصري في إفريقيا- ، وما زال الوجدان العنصري والممارسات العنصرية موجودة في أمريكا وأوروبا؛ لأن العنصرية جزء أصيل من القيم الحضارية الغربية.

ولا شك أن إبراز المساواة الإنسانية- واللاعنصرية وهي من السمات الأساسية في الإسلام، لا شك أن إبراز هذه النقطة تشكل نقطة إضاءة كبيرة للمشروع الحضاري الإسلامي في مستواه العام ويعكس الإسلام- وتعكس الحضارة الإسلامية على المستوى النظري والتطبيقي أروع صور المساواة واللاعنصرية «**فالناس سواسية كأسنان المشط**» و﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ و«**لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى**» «**كلكم لآدم وآدم من تراب**» «**إن الله أذهب عنكم عصبية الجاهلية وتفاخرها بالآباء والأجداد، الناس لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى**».

ولم تكن مصادفة أن التجربة الإسلامية الأولى قامت على أكتاف رجال كان منهم الكثيرون من العبيد والموالي أمثال بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي وزيد بن حارثة.. وغيرهم، وكان من هؤلاء العبيد والموالي الكثير من قادة الإسلام

العظام في كل مجال عسكري أو سياسي أو ثقافي، وكان منهم العلماء في العلوم الدينية والدنيوية على حد سواء وأسهم هؤلاء إسهاماً كبيراً في بناء وازدهار الحضارة الإسلامية، التي شارك فيها الأسود والأبيض والأحمر والأصفر، التركي والفارسي والعربي على حد سواء.

ولعل إحدى السمات التي عاشت حتى الآن مع المسلمين ولم تتعرض للضعف في وجدانهم وسلوكهم برغم حالة الانحطاط التي يعيشونها هي روح المساواة الإنسانية واللاعنصرية، حيث إن المسلمين حتى الآن لا يعطون لاختلاف اللون أو الجنس أي اهتمام ويمارسون اللاعنصرية كسلوك عادي، حتى إن أحداً من المسلمين لم يهتم ولم يلتفت- وقطعاً لم يرفض- أن يكون الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي هو الأستاذ حامد الغابد الإفريقي الأسود.

الحرية كرامة الإنسان /الحرية:

تمثل الحرية القيمة الأعظم- بعد التوحيد- بالنسبة للمشروع الحضاري الإسلامي في مستواه العام والخاص، وتمثل القيمة الأعظم على الإطلاق بالنسبة للمشروع الحضاري العام، أي فيما يخص المسلمين وغير المسلمين.

ذلك أن رسالة الإسلام تستهدف تحرير الإنسان في كل زمان ومكان، وتستهدف تحقيق الحرية للبشر كل البشر، وحتى الجهاد في الإسلام موجه أساساً لرفع الظلم والإكراه ووضع البشر كل البشر على قاعدة الاختيار الحر بلا إكراه ولا تعصب ولا ظلم، ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ بالبقرة:٢٥٦] .

﴿ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾ .

﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس:٩٩] .

فالإكراه مرفوض إسلامياً، حتى ولو كان إكراه على الإسلام لأنه في هذه الحالة يكون حراماً ولا يرضى به الله ويحاسب من يقترفه، والفرق بين الإسلام والوثنية في أحد صوره هو الفرق بين الحرية والإكراه، ذلك أن الوثنية والكفر لا تتحقق إلا بالإكراه والخداع، والإسلام لا يتحقق إلا بالحرية والاختيار الحر.

الإسلام يحرص على حرية التفكير، حرية الاختيار «اختيار العقيدة والمذهب والتصور»- حرية اختيار شكل النظام السياسي وحرية اختيار الحكام بكافة درجاتهم وحرية تغيير الحاكم، حرية التنقل، حرية إقامة الشعائر، حرية الحوار، وحرية تبادل الرأي، ويرفض التعصب والاستبداد السياسي والقهر الطائفي والديني والقومي والعرقي.

أما الكفر فيحرص على القهر والنهب والظلم والاستبداد والقوى الشيطانية تحرص على الحيلولة دون حرية الاختيار وتحرص على وضع علامات إرشادية مزيفة على الطريق وتحرص على نشر التعصب، وتحرص على إلغاء حرية التفكير بكل صورة ووسيلة، وتحرص على نشر الجهل والخرافة والتعصب للآباء والأجداد والأسرة والقبيلة والوطن والقومية.. إلخ.

والقرآن الكريم يطلق على هذا السلوك الشيطاني كلمة «المكر» ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ وكلمة المكر تعني أصلاً الخداع والقهر واستخدام الوسائل المختلفة لإكراه الناس على العقيدة والتصور الذي تريده القوى الشيطانية ﴿ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾[الأعراف:١٢٣] . ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر:٩٢] . هذه الآية على لسان فرعون.

وصحيح أن الناس تصل إلى الإسلام وتعتنقه بمجرد تحقيق حرية التفكير

والحوار والاختيار الحر، لأن الإسلام دين الفطرة، والعقل والكون والوجدان، والقلب يقود إليه، ولكن حتى بصرف النظر عن هذا فإن أمة الإسلام مطالبة بتحقيق الحرية للبشر كل البشر بصرف النظر عن النتيجة، إذ أن تحقيق الحرية غاية في ذاتها ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فقاتلوهم حتى يكفوا عن إكراه الناس على الكفر فإن كفوا عن هذا فلا مشكلة، فقاتلوهم حتى يكفوا عن فتنة الناس بالقهر والظلم السياسي والاقتصادي والاجتماعي فإن كفوا فلا عدوان إلا على الظالمين.

المسلم والجماعة المسلمة والأمة المسلمة مأمورون بالجهاد لتحقيق حرية الاختيار ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾، ولتحقيق حرية التنقل ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟﴾ إذ كيف يسير الناس في الأرض بدون حرية التنقل وبالجهاد ضد التعصب «ليس منا من دعا إلى عصبية» وضد الجهل والخرافة، ضد الاستبداد السياسي «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**» والتفكير فريضة إسلامية، والله تعالى يدعو الناس إلى التفكير في عشرات الآيات القرآنية ﴿أَفَلَا يَتَفَكَّرُونَ..﴾ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .. إلخ.

الدفاع عن الحرية فريضة إسلامية، وتحقيق الحرية بكل صورها وأشكالها مهمة المسلم والجماعة الإسلامية والأمة الإسلامية، بل إن المهمة الأولى لنا هي الدفاع عن حرية الشعوب والطوائف والأقليات والأفراد على حد سواء، حرية الناس في الاختيار على مستوى العقيدة، وعلى مستوى النظام السياسي والاجتماعي وعلى حقهم في اختيار طريقة وأسلوب الحكم وحق اختيار وعزل الحكام وعمر بن الخطاب يقول «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».

وأبو بكر هو القائل: «إن وجدتموني على حق فأعينوني وإن وجدتموني على باطل فقوموني» والتقويم يعني حرية النقد وحرية خلع الحاكم أيضاً.

كرامة الإنسان:

ومن مهام المشروع الحضاري الإسلامي تحقيق الكرامة للإنسان أي إنسان في أي زمان ومكان فلا قهر ولا تعذيب ولا تمثيل ولا انتهاك لهذه الكرامة بأي صورة من الصور، والأصل الإسلامي لحقوق الإنسان هو أفضل أشكال هذه الحقوق، لأنه ينطلق من أن كل البشر عبيد لله تعالى ومتساوون أمامه، فلا حق لبشر أن ينتهك كرامة بشر آخر ولا حق لجماعة بشرية ولا طائفة ولا دولة أن تنتهك حقوق الآخرين. وقد حرص الإسلامي أيما حرص على صيانة حرمات الناس ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ ولا يؤخذ الناس بالشبهات «ادرأوا الحدود بالشبهات» ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا ولا تناجشوا**» «**لا تضايقوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عوراتهم يتبع الله عورته..**» «**إذا ابتغى الأمير الريبة في الناس أفسدهم**».

والشريعة الإسلامية تجيز فقء عين من يطلع على إلى أسرار الناس «**لو أن امرءا اطلع عليك بغير إذن فقذفته بحصاة ففقأت عينه لم يكن عليك جناح**» والقرآن الكريم يؤكد حرمة البيوت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور:٢٧، ٢٨].

وحتى احترام طمأنينة الآخرين هي فريضة إسلامية «**فلا يحل لمسلم أن يروع مسلماً**» و«**لا تروعوا المسلم فإن ترويع المسلم ظلم عظيم**».

الله تعالى كرم الإنسان، وجعله خليفة له في الأرض ونفخ فيه من روحه، وهذا المستوى العظيم الذي وضع الله الإنسان فيه- باعتباره خليفة له في الأرض

وباعتباره كائناً فيه من روح الله، وباعتباره أكرم الكائنات تضع الأساس النظري والعملي لأفضل وأوسع الحقوق لصيانة كرامة الإنسان وحقوقه في نفسه وأهله وبيته وخصوصياته لأن الذي يعتدي على شيء من ذلك، أو ينتهك حقوق الإنسان فإنما هو يعتدي على أكرم المخلوقات أي على خليفة الله في الأرض، على كائن فيه من روح الله، والله تعالى جعل الملائكة تسجد للإنسان ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص:٧٢] . ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٠] . ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة:٣٠] .

الدفاع عن المظلومين:

الدفاع عن المظلومين فريضة إسلامية، المظلومين سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً، فرداً أو جماعة أو أمة أو طائفة وفي عالم يسوده الاستكبار وتمارس دولاً وحكومات وجماعات بشرية وأفراداً الظلم على الآخرين، فإن الدفاع عن المظلومين يصبح رقماً مهماً في معادلة المشروع الحضاري الإسلامي في مستواه العام.

والله تعالى شرع الجهاد وفرضه على المسلمين للدفاع عن المظلومين مسلمين أو غير مسلمين، في كل زمان ومكان ورفع الظلم عن البشر أياً كان دينهم أو جنسهم أو لونهم. ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:١٩٣] .

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ .

وفيما يرويه الرسول ﷺ عن رب العزة : «**وعزتي وجلالي لأنتقمن من الظالم في**

عاجلة أو آجله، وأنتقمن ممن رأى مظلوماً فقدر أن ينصره فلم يفعل».

ويقول الرسول ﷺ : «لا يقفن أحدكم موقفاً يقتل فيه رجل ظلماً فإن اللعنة تنزل على كل من حضر حين لم يدفعوا عنه، ولا يقفن أحدكم موقفاً يضرب فيه رجل ظلماً فإن اللعنة تتنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه».

ويقول : «ما من مسلم يخذل مسلماً في موضع تهتك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موضع يجب فيه نصرته، وما من امرئ مسلم ينصر مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في مواطن يجب فيها نصرته».

ويقول : «من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل أو بقول كان على الله أن يدخله مدخله».

ويقول : «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه».

إنصاف المحرومين:

في عالم يستأثر فيه ٢٠٪ من السكان بكل أو معظم الثروات على حساب ٨٠٪، في عالم يجوع فيه الناس بل يموتون جوعاً «يموت في إفريقيا وحدها ٥٠ مليونًا من الجوع سنوياً منهم ١٥ مليون طفل»، في عالم فيه اختلال مروع في توزيع الثروة سواء على مستوى القارات، حيث تستأثر قارات على حساب قارات أخرى، أو على مستوى الدول.

حيث تستأثر بالثروات دول على حساب دول أخرى، أو حتى داخل الدولة الواحدة حيث تستأثر طبقة على حساب طبقة، فإن إبراز اهتمام المشروع الحضاري

الإسلامي بإنصاف المحرومين اقتصادياً والدعوة إلى عدالة توزيع الثروة أمر له أهميته في إقناع العالم بالمشروع الحضاري الإسلامي، وهو أيضاً فرض شرعي علينا تجاه الأمم والشعوب والأفراد المحرومين.

ونحن مطالبون بالدعوة إلى إعادة توزيع الثروة في العالم على مستوى العلاقات الدولية وقوانين التجارة وأسعار الخامات ونقل الخبرات العلمية والاهتمام بالتدريب والتعليم لتحقيق أكبر قدر ممكن من الثروة والنهضة للدول المختلفة والقارات المختلفة.

ومطالبون أيضاً داخل كل دولة على حدة بالانحياز للفقراء والمحرومين، والعمل على استعادة حقوقهم الاقتصادية والقضاء على التفاوت الطبقي ومنع استئثار طبقة بالخيرات على حساب طبقة أو طبقات أخرى وننطلق في هذا الأمر من إدراكنا بأن الثروات المتاحة في العالم تكفي جميع سكان العالم آلاف المرات وليس في هذا مبالغة. وأن الحرمان والفقر الموجود في هذا المكان أو ذاك يرجع إلى سوء توزيع الثروة أو عدم استقلالها أصلاً ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ بمعنى يظلم في توزيع الثروة، وكفار بمعنى لا يحس استغلالها وبالتالي فإنه من غير المعقول ولا من الطبيعي أن يستمر الجوع والفقر في العالم برغم كل هذه الثروات وعلينا أن نجاهد لرفع الظلم عن المحرومين أفراداً وشعوباً واستعادة حقوق هؤلاء المحرومين.

ولا شك أن الدعوة إلى إشباع حاجات الناس جميعاً أصل إسلامي واضح ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ﴾ [الحشر:٧]. «ليس منا من بات شبعاناً وجاره جائع» حديث شريف والجار هنا قد يكون فرداً أو أسرة أو مدينة أو دولة أو قارة.. وهكذا، «إذا جاع الناس فلا مال لأحد» حديث شريف.

«من كان عنده فضل ظهر فليجد به على من لا ظهر له..» وعدد جميع أنواع النعم. حديث شريف.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي على الإنسان أن ينفق على المحرومين كل ما زاد عن حاجته. «لأخذت أموال الأغنياء فرددتها على الفقراء» قول لعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

«ما حرم فقير إلا بما متع به غني» قول لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أي الحرمان يأتي من الظلم وسوء توزيع الثروة.

حماية الأقليات:

من العناصر المهمة في المشروع الحضاري الإسلامي في مستواه العام مسألة حماية الأقليات، وفضلاً عن أنها فريضة شرعية، فإنها أيضاً تعكس القيم العظيمة لحضارة الإسلام بحيث تصبح هذه المسألة نقطة جذب حضاري لدخول العالم في المشروع الحضاري الإسلامي ولاشك أن الكثير من الأقليات الدينية والعرقية والقومية في العالم تعاني من الاضطهاد منذ أن سادت وهيمنت الحضارة الغربية على مقدرات العالم.

والأصول النظرية، والممارسات العملية في حضارة الإسلام تمثل أروع وأعظم ما عرفته البشرية في هذا الإطار فبداية فإن الإسلام يخدم خصوصية الأقليات ويحرص على تأكيدها ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ويدعو إلى احترام الجماعات البشرية بعضها بعضاً ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ ويجعل المعيار القانوني واحداً بالنسبة للأقلية والأغلبية فلا ازدواج معايير هناك ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة:٨]. ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾[النساء:١٣٥].

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ . ويقول الرسول ﷺ : «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به».

ويقول : «من ظلم معاهداً أو ذمياً أو كلفه قومه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم القيامة».

وفي هذا الصدد ننقل عن المفكر الإسلامي إسماعيل الفار قوله : «لقد بلغ المجتمع الإسلامي حدوداً تفوق التصور في توفير حرية الاعتقاد للآخرين، وقد حدد المسلمون تلك الميزه- حرية الاعتقاد- التي منحها الله لليهود والمسيحيين والصابئين في القرآن الكريم- حتى شملت الزرادشتيين والهندوس والبوذيين والمجوس والموالين للديانات الأخرى عندما اتصلوا بها».

ويقول الكاتب الإسلامي فهمي هويدي «لم يقتصر الأمر على مجرد حماية الأقليات وتحقيق حرية الاعتقاد للآخرين، بل تعدي إلى قيام المسلمين بحفظ التراث الحضاري للديانات الأخرى».

ويروي شكيب أرسلان في مقال له بعنوان التعصب الأوروبي أم التعصب الإسلامي : «أن أحد الوزراء العثمانيين كان مرة في أحد المجالس في جدال مع بعض رجال الدولة الأوروبيين فيما يتعلق بهذا الموضوع، فقال لهم الوزير العثماني: إننا نحن المسلمين من ترك وعرب وغيرهم مهما بلغ بنا التعصب في الدين فلا يصل بنا إلى درجة استئصال شأفة أعدائنا ولو كنا قادرين على استئصالهم- ولقد مرت بنا قرون وأدوار كنا قادرين فيها على ألا نبقي بين أظهرنا إلا من أقر بالشهادتين وأن نجعل بلداننا كلها صافية للإسلام فما هجس في ضمائرنا خاطر كهذا الخاطر أصلاً.

وكان إذا خطر هذا ببال أحد ملوكنا كما وقع للسلطان سليم الأول العثماني تقوم في وجهه الملة ويواجهه أمثال زنبيلي أفندي على شيخ الإسلام ويقول له بلا محاباة

ليس لك على النصارى واليهود إلا الجزية وليس لك أن تزيحهم عن أوطانهم فيرجع السلطان عن عزمه امتثالاً لشرع الله الحنيف، فيبقى بين أظهرنا حتى أبعد القرى وأصغرها نصارى ويهود وصابئة وسامرة ومجوس وكلهم كانوا- وآخرون- لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، أما أنتم معاشر الأوروبيين فلم تطيقوا أن يبقى بين أظهركم مسلم واحد، واشترطتم على من أراد البقاء بينكم أن يتنصر، ولقد كان في أسبانيا ملايين وملايين من المسلمين، وكان في جنوب فرنسا وشمالي إيطاليا وجنوبها مئات الألوف منهم، ولبثوا في هذه الأراضي أعصراً مديدة، وما زلتم تستأصلون منهم حتى لم يبق في هذه البلدان شخص واحد يدين بالإسلام، ولقد طفت بلاد أسبانيا كلها فلم أعثر فيها على قبر واحد يعرف أنه قبر مسلم».

وفي إطار الحضارة الإسلامية، عاشت الأقليات ومارست عقيدتها وحريتها، بل شاركت في الممارسات الحضارية الإسلامية، وقد بلغ التسامح الإسلامي الديني في تجربة الحضارة الإسلامية في الأندلس مبلغاً عظيماً، ولدت أسماء مسيحية ويهودية في إطار الحضارة الإسلامية ولعل ابن ميمون الأندلسي خير شاهد على ذلك فبرغم كونه يهودياً يعيش في مجتمع مسلم، إلا أن ذلك لم يعفه من أن يصبح مفكراً أو فيلسوفاً بارزاً.

وفي الحقيقة فإنه إذا كانت الأقليات قد مارست حريتها في ظل الحضارة الإسلامية، وإذا كانت هذه الأقليات في الشرق بالذات وفي حالة أقباط مصر على وجه الخصوص قد اندمجوا في الحضارة الإسلامية وساهموا في صنعها وازدهارها، وأصبحوا بالتالي جزءاً منها بحيث إنهم أصبحوا ينتمون إلى الإسلام كثقافة وكحضارة وكوطن وإن اختلفوا في الدين والعقيدة، فإن هذا يعني أن المشروع الحضاري الإسلامي يضم المسلمين ويضم مسيحي الشرق عموماً وأقباط مصر خصوصاً، وأن هؤلاء كالمسلمين سواء بسواء سوف يحملون قيم المشروع الحضاري الإسلامي إلى العالم أجمع.

خاتمة

كما حمل الرسول ﷺ الإسلام وقيمه الحضارية إلى المسلمين فأصبح بذلك شهيداً عليهم،فإن المسلمين مطالبون بحمل قيم المشروع الحضاري الإسلامي إلى العالم أجمع امتثالاً لأمر الله تعالى.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾. صدق الله العظيم.

◆◆◆